شرح
العبودية
لشيخ الإسلام ابن تيمية

شرح
فضيلة الشيخ
عبد العزيز بن عبد الله الراجحي
الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

دار الفضيلة

kutub-pdf.net

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

الناشر

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الرياض ١١٤٣٣ - ص.ب ١٠٣٨٧

تليفاكس: ٢٣٣٣٠٦٣

kutub-pdf.net

المقـدّمـة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجميعن، أما بعد.

فرسالة العبودية لشيخ الإسلام الإمام العلامة أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، الإمام المجاهد الصابر العالم العامل رحمة الله تعالى عليه، وهو إمام مشهور معروف لا يخفى، وشهرته تغني عن الكلام عنه، وهو إمام عظيم أظهر مذهب أهل السنة والجماعة ومعتقدهم في وقت كاد أن يندثر، واستفاد من علمه في حياته وبعد وفاته الجم الغفير من الناس، فكم من إنسان هداه الله على يديه في حياته وبعد وفاته، ولو لم يكن من ذلك إلا شهود العلامة ابن القيم رحمة الله عليه فإن الله سبحانه وتعالى هداه على يديه، وكم من إنسان انحرف عن معتقد أهل السنة والجماعة فهداه الله على يديه في حياته وبعد مماته، وقد قرأ كثير من الناس كتاب هذا الإمام العلامه واستفادوا وأفادوا. وهو إمام عظيم في أصول الدين، وفي الفقه، وفي الحديث وفي التفسير، وفي سائر أنواع العلوم. **ولا يعرف له قولا خطأ في أصول الدين رحمة الله تعالى عليه**، وأقواله واختيارته في فروع الدين مسددة.

وهذه الرسالة وهي رسالة العبودية على أسمها تتعلق بعبودية الله سبحانه وتعالى، وهذا الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كانت ولادته سنة ستمائة وواحد وستين هجرية وكانت وفاته سنة سبعمائة وثمانية وعشرين رحمة الله تعالى عليه، فعمره ثمانية وستون عامًا.

وهذه الرسالة هي جواب لسؤال ألقي على الإمام رحمة الله، سئل فيه عن العبادة ما هي؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها؟ وهل هي أعلى مقامات الدين أم هناك شيئًا فوقها؟ فأجاب بهذه الرسالة، وكثيراً من رسائله تكون جواباً لسؤال ألقي عليه ـ رحمه الله ـ كالعقيدة الوسطية وهي من أحسن

kutub-pdf.net

كتب شيخ الإسلام في المعتقد جواباً لسؤال من بلدة الواسطي فسميت الواسطية، والحمويه جواب لسؤال من بلدة حما فسميت الحمويه، والتدمريه جواب لسؤال سائل من بلدة تدمر فسميت بالتدمريه، وهكذا هذه الرسالة. وهي رسالة عظيمة وهي تقع في النسخة التي معي فيما يقارب اثنين وخمسين صفحة.

وسنحاول إن شاء الله أن نتناول هذه الرسالة بالشرح والتقريب، على أن يكون الشرح متوسطًا ولو أردنا أن نتوسع في شرح هذه الرسالة لطال بنا الوقت، لكن ما لا يدرك كله، لا يترك كله.

ونسأل الله تعالى أن ينفع بها، ونسأله تعالى لنا وللجميع العلم النافع والعمل الصالح، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين

kutub-pdf.net

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين إن الحمد لله، نحمده ونستعينه نستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد..

فقد سئل شيخ الإسلام وعلم الأعلام، ناصر السنة، وقامع البدعة: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية رحمه الله عن قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[1]، فما العبادة؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا؟ وما حقيقة العبودية؟ وهل هي أعلى المقامات في الدنيا والآخرة، أم فوقها شيء من المقامات؟ وليبسط لنا القول في ذلك.

قوله فقد سئل: (هذا هو السؤال الذي وجه للإمام العلامة رحمه الله، فقد سئل عن قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، وهذا الخطاب في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ خطاب موجه إلى جميع الناس مؤمنهم وكافرهم، ذكرهم وأنثاهم، عربهم وعجمهم، أحرارهم وعبيدهم، كلهم موجه إليهم هذا الخطاب، وكلهم مطالب بالعبادة وهذا أول أمر في القرآن الكريم في سورة البقرة، أول أمر وجهه الله إلى الناس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فسئل الإمام رحمه الله عن هذه الآية الكريمة .

يقول السائل: الله تعالى أمرنا بالعبادة، فما هي العبادة؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل في العبادة أم هناك شيء يخرج منها؟ وما حقيقة العبادة؟ وهل هي أعلى المقامات أم فوقها شيء من المقامات؟، بمعنى أنه سؤال

---

(١) سورة البقرة: آية: ٢١.

kutub-pdf.net

فأجاب رحمه الله:

العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة، والزكاة، والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضى بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه. وأمثال ذلك: هي من العبادة لله.

له فروع، وسيأتي في الجواب إن شاء الله أن العبادة تشمل جميع الأوامر والنواهي، ومجموع الدين كله داخل فيها؛ وحقيقة العبودية أن تعبد الله مخلصًا له الدين، وهي أعلى المقامات حتى إن أفضل الناس وهم الأنبياء والرسل، وأعلى مقاماتهم العبودية والرسالة، وكذلك أعلى مقامات نبينا عليه الصلاة والسلام العبودية والرسالة).

وقوله العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة هذا هو تعريفها، أي اسم يجمع كل ما يحبه الله ويرضاه سواء كان هذا قولاً أو عملاً، وسواء كان باطنا أو ظاهراً، وسواء كان من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح أو من أقوال اللسان، فكل ذلك داخل في مسمى العبادة ما دام يحبه الله ويرضاه، فكل شيء يحبه الله ويرضاه فهو عبادة، سواء كان قولاً أو عملاً وسواء كان باطنًا أو ظاهراً، وسواء كان من أقوال اللسان أو من أقوال القلب، وسواء كان قول القلب أو قول اللسان أو عمل القلب أو عمل الجوارح، كله داخل في مسمى العبادة ما دام شيئًا يحبه الله ويرضاه. وبعبارة أخرى: العبادة: هي امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، فهي أداء الواجبات وترك المحرمات، أداء الواجبات التي أوجبها الله قولاً أو فعلاً،

kutub-pdf.net

....

باطناً أو ظاهراً، وترك المحرمات التي حرمها الله قولاً أو فعلاً، باطنًا أو ظاهرًا.

ثم مثل المؤلف رحمه الله فقال: فالصلاة والزكاة والصيام والحج كل هذه من أنواع العبادة، والصلاة فيها أعمال القلوب وأعمال الجوارح، أعمال القلوب في إخلاص أدائها لله، وأقوال اللسان حيث فيها ذكر وقراءة وتسبيح وتهليل، والزكاة كذلك إعطاء وعقيدة، والصيام كذلك إمساك بنية، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل هذا عبادة، وجهاد الكفار عبادة، وجهاد المنافقين عبادة، والإحسان إلى الجار عبادة، والإحسان إلى المسكين، والإحسان إلى المملوك من الآدميين، والإحسان إلى المملوك من البهائم، ودعاء الله عبادة، والذكر عبادة، والقراءة عبادة.

وكذلك أيضا مثل لأعمال القلوب: فحب الله ورسوله هذا عمل قلبي، خشية الله عمل قلبي، الإنابة إلى الله عمل قلبي، إخلاص الدين عمل قلبي، والصبر لحكم الله عمل قلبي، والشكر لنعم الله عمل قلبي، والرضا بقضاء الله عمل قلبي، والتوكل على الله يجمع أمران يجمع فعل الأسباب وتفويض الأمر إلى الله، والرجاء لرحمة الله، والخوف من عذابه، كل ذلك من العبادة.

والخلاصة أن العبادة تشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأقوال القلب وأقوال اللسان. أقوال اللسان: مثل الذكر، وتلاوة القرآن، والتسبيح والتهليل، والتكبير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وأقوال القلب: إقراره وتصديقه، وعمل القلب مثل ما سبق: حب الله ورسوله، خشية الله والإنابة إليه، إخلاص الدين، الصبر والشكر والرضا والرجاء والخوف، كل هذه من أعمال القلوب. أعمال الجوارح: الصلاة والزكاة والصلاة والحج، صدق الحديث، أيضًا هذه من أقوال اللسان.

kutub-pdf.net

وذلك: أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها. كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(١) وبها أرسل جميع الرسل، كما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(٢).

وكذلك قول هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم لقومهم . وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(٥). كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(٦).

ويمكن القول بأن العبادة تشمل: كل شيء جاء به الشرع، سواء ما أمر به الشرع، أو ما نهى عنه الشرع، وسواء كان هذا الذي أمر به الشرع أو نهى عنه الشرع قولاً أو فعلاً، وسواء كان من أقوال اللسان أو من أقوال القلوب، وسواء كان من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح).

وقوله **وذلك أن العبادة**: هذه منزلة العبادة عند الله، فهي الغاية المحبوبة لله والمرضية له، وما دامت العبادة هي الغاية التي يحبها الله ويرضاها، فهي أعلى منزلة، أعلى منزلة لك أيها الإنسان أيها المخلوق أن تكون عبدًا لله وأن تحقق العبودية لله، وإذا حققت العبودية لله صرت محبوبًا لله مرضيًا له، وأكثر الناس تحقيقًا للعبودية هم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأكمل الرسل تحقيقًا

---

(١) سورة الذاريات آية : ٥٦ .

(٢) سورة الأعراف آية: ٥٩ .

(٣) سورة النحل: ٣٦ .

(٤) سورة الأنبياء: ٢٥ .

(٥) سورة الأنبياء: ٩٢ .

(٦) سورة المؤمنون: ٥١ ٥٢ .

kutub-pdf.net

....

للعبودية هم أولى العزم الخمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى وعيسى، ونبينا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وأكمل أولى العزم الخمسة تحقيقًا للعبادة الخليلان إبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وأكمل الخليلين تحقيقًا للعبادة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وبهذا يتبين أن أكمل الناس تحقيقًا للعبودية أكمل الخلق هو نبينا ﷺ، ثم يليه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ثم يليه موسى عليه الصلاة والسلام، ثم بقية أولى العزم الخمسة ثم بقية الرسل، ثم سائر الأنبياء ثم بعد ذلك الصالحون من عباد الله الصديقون، ثم بعد ذلك الشهداء، ثم الصالحون، هؤلاء هم أكمل الناس على التحقيق على هذه المراتب الأربعة، أ ـ الأنبياء، ب ـ الصالحون، جـ ـ الشهداء، د ـ الصديقون، وأكملهم الصديق الأكبر أبوبكر الصديق رضي الله عنه، ثم يليهم سائر المؤمنين، و في مقدمتهم العلماء والأئمة والأخيار.

والعبادة هي التي خلق الخلق من أجلها، وهذا يدل على عظم منزلة العبادة وأن كمال المخلوق أن يكون عبداً لله، ولذلك خلق الخلق من أجلها، كما قال سبحانه وتعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، وأرسل بها الرسل، فكل الرسل أرسلوا يأمرون قومهم بعبادة الله، كما قال تعالى عن نوح أنه قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وهود قال ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وصالح قال لقومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وشعيب قال لقومهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، كل رسول بعثه الله يأمر قومه بعبادة الله، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، قال سبحانه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، قال سبحانه ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، قال سبحانه مخاطبًا الرسل ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وبهذا يتبين أن أعلى مقام يكون للإنسان هو تحقيق العبودية لله، وأكمل الناس تحقيقًا لهذه العبادة هم الرسل عليهم الصلاة والسلام).

kutub-pdf.net

وجعل ذلك لازمًا لرسوله إلى الموت كما قال: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾(١). وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى: ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾(٣).

وذم المستكبرين عنها بقوله: ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم. إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾(٤).

ونعت صفوة خلقه بالعبودية له، فقال تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾(٥).

وقال ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾(٦). الآيات.

ولما قال الشيطان: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾(٧)

وقوله **وجعل ذلك لازمًا**: هكذا تكون منزلة العبادة، فمنزلتها عظيمة بالنسبة للمخلوق، وإذا حقق العبادة فإن قربه من الله على قدر تحقيقه لهذه العبادة، ولا يتنصل أحد من المخلوقين فيخرج عن هذه العبادة أبدًا، وإذا أدعى رجل أن

---

(١)

(٢) سورة الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠.

(٣) سورة الأعراف: ٢٠٦.

(٤) سورة غافر: ٦.

(٥) سورة الإنسان: ٦.

(٦) سورة الفرقان: ٦٣.

(٧) سورة الحجر: ٣٩ ـ ٤٢.

kutub-pdf.net

....

هناك أحد يسقط عنه التكاليف ولا يكلف بالعبادة وعقله ثابت معه وليس مخوفًا ولا مجنونًا إلا الحائض والنفساء يسقط عنهم الصلاة، والصوم في حال الحيض والنفاس، فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافراً. كما نص على ذلك الأئمة كشيخ الإسلام وغيره ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ ولهذا جعل الله العبودية لازمة لرسوله حتى الموت، مع أنه ﷺ أكمل الناس ولكن الله جعل العبادة لازمة له، فقال ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ واليقين هو الموت، يعني استمر على عبادة ربك والزمها حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك.

وكذلك الملائكة والأنبياء فهم أفضل خلق الله، وقد وصفهم الله تعالى بالعبادة، فقال ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وهذا عام، يعني هو مالك السماوات والأرض، ثم قال: ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ وهم الملائكة ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ⦗١٩⦘ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾، هذا وهم الملائكة والأنبياء والرسل أفضل المخلوقات، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ وهم الملائكة ﴿ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

ثم أخبر أن من استكبر عن عبادة الله فإنه سيدخل جهنم صاغراً، قال سبحانه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. ونعت صفوة خلقه بالعبودية، فقال عن الأبرار: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ هذه الإضافة إضافة تشريف وتكريم، وقال سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ⦗٦٣⦘ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾، فإضافهم إليه سبحانه تشريفا وتكريمًا، وأخبر الله تعالى عن إبليس أن الله تعالى لما أنظره أقسم أنه سيغوي

kutub-pdf.net

وقال في وصف الملائكة بذلك: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾(٢).

الناس واستثنى عباد الله المخلصين، فإنه ليس له سلطان عليهم، قال الله تعالى عنه ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾، وفي آية أخرى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، فأضافهم الله عز وجل إليه في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ وهذه الإضافة إضافة تشريف).

وقوله وقال في وصف الملائكة: هذا في وصف الملائكة، فقد وصف الله تعالى الملائكة بالعبودية، وأنهم لا يخرجون عن العبودية، فقال سبحانه ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ يعني الملائكة عباد مكرمون، لا يخرجون عن العبودية. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ هذا في بيان تعظيم من نسب الولد لله، وأن هذا أمر عظيم، فمن نسب الولد لله وقال لله ولد فهو مشرك، وقد قال على الله قولاً عظيماً، ولهذا قال الله تعالى ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ يعني أمراً عظيماً، ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي أن هذا أمر عظيم تكاد تنفطر له

---

(١) سورة الأنبياء ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) سورة مريم: ٨٨ ـ ٩٥.

kutub-pdf.net

وقال تعالى عن المسيح الذي ادعيت فيه الإلهية والبنوة: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1]. ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»[2].

السموات وتنشق الأرض وتخر الجبال، حيث ادعوا للرحمن الولد وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدًا، ثم قال سبحانه ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، كل من في السموات والأرض يأتي يوم القيامة عبدًا لله معبد مربوط مقهور مذلل مصرف مدبر، تنفذ فيه قدرة الله ومشيئته، ليس له من نفسه وجود ولا عدم ولا خروج له عن قدرة الله ونفوذ مشيئته.

وقوله: **وقال تعالى عن المسيح**: المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام نبي الله، وهو من أولى العزم الخمسة، وهو عبد لله لا يخرج عن العبودية، ادعت فيه النصارى الآلهية والبنوة، فأدعو أنه إله وأنه ابن الله، قال الله تعالى ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾، ومع ذلك فالمسيح عليه الصلاة والسلام عبد لا يخرج عن العبودية، عبد لله فكيف يدعي فيه النصارى أنه ابن الله أو أنه إله؟! تعالى الله عن ذلك، ولهذا قال الله تعالى عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ﴾ الضمير يعود إلى المسيح ﴿إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل.

ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق، قال في الحديث الصحيح **(لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)** ﴿عَبْدٌ﴾ وهذا هو مقامه، وهذا مكانه، وهذه منزلته عبد الله ورسوله، (لا

---

(١) سورة الزخرف: ٥٩.

(٢) رواه البخاري [٣٤٤٥].

kutub-pdf.net

وقد نعته الله بالعبودية في أكمل أحواله. فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ وقال في الإيحاء: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾(١). وقال في الدعوة: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدًا﴾(٢). وقال في التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾(٣)

تطروني) الاطراء هو مجاوزة الحد في المدح، ، والكذب فيه، والغلو، لا تطروني ولاتغلوني فترفعوني من مقام العبودية والرسالة إلىٰ مقام الألوهية، كما ادعت النصارىٰ في عيسىٰ.

وقوله وقد نعته الله: هذه أعلىٰ المقامات لنبينا ﷺ، ومع ذلك وصفه الله تعالىٰ بالعبودية، ولو كان هناك شيء أعلىٰ من هذه العبودية لوصف الله بها نبيه في هذه الأحوال:

الحالة الأولى: حالة الإسراء، لما أسرىٰ به عليه الصلاة والسلام من مكة إلىٰ بيت المقدس، ثم عرج به من بيت المقدس إلىٰ السماء، قال الله تعالىٰ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾، إذًا رسول الله ﷺ عبد وليس بملك ولا إله، وليس ابن الله. كما تدعىٰ النصارىٰ في عيسىٰ، بل هو عبد الله ورسوله.

وفي مقام الإيحاء قال تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ فسماه عبده ووصفه بالعبودية.

وفي مقام الدعوة إلىٰ الله قال تعالىٰ: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾.

وفي مقام إنزال الكتاب قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

---

(١) سورة النجم: ١٠.

(٢) سورة الجن: ١٩

(٣) سورة البقرة: ٢٣.

kutub-pdf.net

فالدين كله داخل في العبادة.

ولو كان هناك شيء أعلىٰ من العبودية لوصف الله بها نبيه ، فهذه أعلىٰ المقامات وأشرف الأحوال وصف الله بها نبيه بالعبادة وهو أكمل الخلق وأفضل الخلق ، فدل علىٰ أنه ليس هناك أحد يخرج عن العبودية من المخلوقين أبدًا ، ومن ادعىٰ أنه يخرج عن عبودية الله وأنه يتجاوزها فإنه يكون كافراً مرتدًا ، ومن ادعىٰ أنه يتجاوز العبودية وأنه لا يكون عبداً لله فهذا مستكبر عن عبادة الله ، ومن استكبر عن عبادة الله فهو كافر ، واستسلم لله ولغيره فهو مشرك ، ومن عبد الله وغيره فهو مشرك ، وكلا من المشرك والمستكبر كافر .

وقوله **فالدين كله داخل**: وهذه جملة مهمة ، وهذا جواب سؤال من الأسئلة التي وجهت للمؤلف ، نعم الدين كله داخل في العبادة ، الصلاة داخلة في العبادة ، والصوم داخل في العبادة ، والحج داخل في العبادة ، وبر الوالدين داخل في العبادة ، وصلة الرحم داخل في العبادة ، وحب الله ورسوله داخل في العبادة ، وتلاوة القرآن داخل في العبادة ، والتسبيح داخل في العبادة ، والأمر بالمعروف داخل في العبادة ، النهي عن المنكر داخل في العبادة ، والإحسان إلىٰ الناس داخل في العبادة ، وكف الأذىٰ عن الناس داخل في العبادة ، وهكذا جميع فروع الدين كلها داخلة في العبادة ، ليس هناك شيء يخرج عن العبادة .

kutub-pdf.net

وقد ثبت في «الصحيح» أن جبريل لما جاء إلى النبي ﷺ في صورة الأعرابي وسأله عن الإسلام. قال: «الإسلام تشهد أن، لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». قال: فما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، ورسوله، والبعث بعد الموت. وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: فما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».. ثم قال في آخر الحديث «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم»[1]. فجعل هذا كله من الدين.

وقوله وقد ثبت: هكذا في هذا الحديث العظيم حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما جاء جبريل وسأل النبي ﷺ، حتى يتعلم الناس ويستفيدوا، فسأل عن الإسلام ثم سأل عن الإيمان، ثم سأل عن الإحسان، فذكر له أن الإسلام مبني على خمسة أركان، وهي: الشهادة لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة، ثم الصلاة، ثم الزكاة، ثم الصوم، ثم الحج، ثم سأله عن الإيمان، فبين له أن الإيمان له أركان ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، ثم سأله عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ثم سأله عن الساعة، ثم سأله عن أماراتها، ثم سأل النبي ﷺ الناس قال تدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم. يسمي هذا دين، الإسلام والإيمان والإحسان كله دين، ويكون الدين ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، ولهذا قال: «أتاكم يعلمكم دينكم» وفي لفظ «أمر دينكم»، فجعل هذا كله من الدين.

---

(١) رواه مسلم (٨).

kutub-pdf.net

والدين يتضمن معنى الخضوع والذل، يقال: دنته، فدان. أي أذللته فذل. ويقال: يدين الله، ويدين لله، أي يعبد الله ويطيعه، ويخضع له. فدين الله: عبادته وطاعته والخضوع له.

والعبادة أصل معناها: الذل أيضًا. يقال طريق معبد، إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام.

لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب: فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى؛ بغاية المحبة له.

وقوله الدين يتضمن: هكذا الدين يتضمن معنى الخضوع والذل، فالمتدين لله هو الخاضع لله الذليل له، وغير المستكبر، العابد له، المطيع لله كالجمل المذلل، ومنه قال طريق معبد: أي مذلل وطئته الأقدام، فالعبد معبد لله مذلل خاضع ليس مستكبراً، بل هو منقاد يؤدي فرائض الله وينتهي عن محارم الله، ويستقيم على دين الله، ويقف عند حدود الله، هكذا العبد، ولهذا فإن الدين يتضمن معنى الخضوع والذل، قال: دنته فدان أي دنته فذل. فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له.

وقوله والعبادة أصل: هكذا العبادة أصل معناها الذل، ومنه يقال في اللغة العربية: طريق معبد، إذا كان مذللاً وطئته الأقدام، ويقال: جمل ذلول أي منقاد، والعبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، يعني أن الإنسان يؤدي العبادة وهو خاضع لله محبًا له، وهكذا. فهو يعبد الله وهو منقاد له خاضع له محبًا لله عز وجل، خائفٌ راجٍ هكذا تكون العبادة، يعبد الله بالحب وبالخوف وبالرجاء والذل، فالعبادة تتضمن غاية الذل لله وغاية المحبة لله، والحب كما سيقول المؤلف مراتب متعددة، منها التتيم، ومنها العلاقة، ومنها الصبابة، ومنها الغرام، كما سيذكر المؤلف.

kutub-pdf.net

فإن آخر مراتب الحب: هو التتيم، وأوله: العلاقة، لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة، لانصباب القلب إليه ثم الغرام، وهو الحب الملازم للقلب، ثم العشق. وآخرها التتيم، يقال: تيم الله، أي عبد الله، فالمتيم: المعبد لمحبوبه.

ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه. ولهذا لايكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله. وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله فتعظيمه باطل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾(١). فجنس المحبة تكون لله ولرسوله كالطاعة، فإن الطاعة لله ولرسوله والإرضاء لله ولرسوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾(٢) والإيتاء لله ولرسوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾(٣).

وقوله فإن آخر مراتب: فالمحبة مراتب متعددة، وآخر المراتب كما ذكر المؤلف التتيم، وأول مراتب المحبة العلاقة، وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب، يتعلق به ويميل إليه، ثم يليها مرتبة الصبابة، وسميت صبابة لأن القلب ينصب إليه، ثم الغرام من مراتب المحبة وهو الحب الملازم للإنسان، ومنه قوله تعالى في جهنم ﴿إن عذابها كان غرامًا﴾ يعني ملازما، ثم العشق، وهو مراتب المحبة، وهذا لا يوصف الله به، وآخرها التتيم قال (تيم الله) أي عبد الله، فالمتيم المعبد لمحبوبه.

---

(١) سورة التوبة: ٢٤.

(٢) سورة التوبة: ٦٢.

(٣) سورة التوبة: ٥٩.

kutub-pdf.net

....

وبين المؤلف رحمه الله أن العبادة لابد فيها من الخضوع والذل والمحبة، فالإنسان في عبادته يخضع لله مع حبه له وإذلاله وتعظيمه. لكن لو أحب شخصاً من المخلوقين فإن خضع له وأحبه صارت هذه عبادة، أما إذا خضع لإنسان ولم يحبه فلا تكون عبادة. أو أحب إنسان ولم يخضع له فلا تكون عبادة، لابد من اجتماع الأمران فلو أحب شخصا ولم يخضع له لم يكن عابداً له، كما يحب الإنسان ولده وصديقه وزوجته لكن لايخضع لهم. ولا يذل لهم؛ وإذا خضع لإنسان ولم يحب له كما يخضع الإنسان لسلطان أو معتدي قاهر، فإنه يخضع له ولكن لا يحبه بل يبغضه فلا يكون عبادة، فلا بد من اجتماع الأمرين خضوع وذلك مع محبة وإجلال في عبادة الله، أما إذا انفرد أحدهما فلا يكون عبادة، وكل ما أُحب لغير الله تكون محبته فاسدة، وكل معظم بغير أمر الله فتعظيمه باطل، قال تعالىٰ في سورة التوبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، هذا فيه الوعيد الشديد علىٰ من قدم شيئًا من هذه الأصناف الثمانية علىٰ محبة الله ورسوله، ولهذا قال ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فجنس المحبة تكون لله وللرسول، فالله تعالىٰ والرسول يحب، والطاعة كذلك تكون لله وللرسول، والإرضاء يكون لله وللرسول ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ والإيتاء يكون لله وللرسول ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾.

أما العبادة والتوكل والخوف فهذا لا يكون إلا لله فما يعبد الرسول، فالعبادة خاصة لله، والتوكل خاص بالله سبحانه وتعالىٰ، والحسب خاصا بالله سبحانه وتعالىٰ، والدعاء خاص بالله، والنذر خاص بالله، والذبح، وهكذا،

kutub-pdf.net

وأما العبادة وما يناسبها: من التوكل، والخوف، ونحو ذلك، فلا تكون إلا لله وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١)

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾(٢). فالإيتاء لله وللرسول، كقوله، كقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(٣).

وأما الحسب - وهو الكافي - فهو الله وحده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(٤). وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٥) أي حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين: الله. ومن ظن أن المعنى: حسبك الله والمؤمنون معه، فقد غلط غلطًا فاحشًا، كما قد بسطناه في غير هذا الموضع.

وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(٦).

فالعبادة بأنواعها خاصة بالله، ولا يُعبد الرسول، لكن الطاعة تكون لله وللرسول، والمحبة تكون لله وللرسول، والإرضاء يكون لله وللرسول، وهكذا.

وقوله العبادة وما يناسبها: هذا فيه بيان الحقوق الخاصة بالله والحقوق المشتركة بين الله وبين الرسول، فالحقوق الخاصة بالله هي العبادة؛ فلا يشاركه فيها أحد بجميع أنواعها؛ من الذبح، والنذر، والصلاة، والزكاة، والصوم،

---

(١) سورة آل عمران: ٦٤.
(٢) سورة التوبة: ٥٩.
(٣) سورة الحشر: ٧.
(٤) سورة آل عمران: ١٧٣.
(٥) سورة الأنفال: ٦٤.
(٦) سورة الزمر: ٣٦.

kutub-pdf.net

....

والحج، فجميع أنواع العبادة كلها خاصة بالله، والحسب والكفاية تكون بالله، فلا تقول يكفينا الله ويكفينا الرسول، وأما الحسب وهو الكافي فهو الله وحده ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، فلا تقول: حسبي الله والرسول لأن هذا حق خاص بالله، الحسب والعبادة بجميع أنواعها والتوكل والخوف والرجاء كل هذا من حق الله.

وهناك حقوق مشتركة بين الله وبين الرسول، مثل المحبة فهذه تكون لله وللرسول، والطاعة تكون لله وللرسول، والإرضاء يكون لله وللرسول، والإيتاء يكون لله وللرسول ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، فلا يخلط الإنسان بين حقوق الله الخاصة به وبين الحقوق المشتركة بين الله والرسول.

هناك حقوق خاصة بالرسول وهي التوقير، والتعظيم، والإجلال، والتعزيز، كما قال الله تعالى في سورة الفتح ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تعزروه وتوقروه هذا للرسول، والتعزير والتوقير: أي التقدير والإجلال، ثم قال ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هذا خاص بالله، التسبيح والتكبير والتهليل هذا حق الله لأنها عبادة، فلا تسبح الرسول ولا تهلل الرسول ولا تكبر الرسول، بل هذا خاص بالله، وهناك حقوق مشتركة بين الله وبين الرسول ومنها: المحبة والطاعة والإيتاء والإرضاء. ولهذا قال الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي حسبك الله وحسب من اتبعك الله، أما من ظن حسبك الله ومن المؤمنين فإن هذا خطأ فاحش، أي من ظن المعنى أن الله والمؤمنين يحسبونك يا رسول الله فقد أخطأ خطئًا فاحشًا، فالحسب خاص بالله، ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني يكفيك الله ويكفي اتباعك من المؤمنين، ليس المعنى أن الله

kutub-pdf.net

وتحرير ذلك: أن العبد يراد به المعبد الذي عبده الله، فذلله ودبره وصرفه.

وبهذا الاعتبار: فالمخلوقون كلهم عباد الله: الأبرار منهم والفجار، والمؤمنون والكفار، وأهل الجنة وأهل النار، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته، وكلماته التامات التي لا يجاوزها بر ولا فاجر، فما شاء كان وإن لم يشاؤوا. وما شاؤوا إن لم يشأه لم يكن، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(١).

والمؤمنين يكفونك يا محمد كما ظنه بعضهم، وقد نبه على ذلك المؤلف رحمه الله. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني حسبك الله، والحسب: معناه الكفاية، حسبك وحسب اتباعك.

وقوله وتحرير ذلك: هذا فيه بيان أن العبد له معنيان: عبد بمعنى المعبد، وعبد بمعنى العابد، فاعبد بمعنى المعبد أي الذي عبده الله فذلله ودبره وصرفه تنفذ فيه مشيئة الله وقدرته، وهذا يشمل جميع المخلوقين، فجميع المخلوقين كلهم عباد الله سواء أكانوا أبرارًا أو فجارًا، وسواء أكانوا مؤمنين أو كفارًا، وسواء عرفوا أو لم يعرفوا، وسواء اعترفوا أو جحدوا، كلهم عبيد، بمعنى أن الله دبرهم وصرفهم ونفذت فيهم قدرته ومشيئته ماأحد يخرج عن قدرة الله، فمثلاً لا أحد يمتنع عن الموت، ولا أحد يمتنع عن المرض الذي يصيبه، فلا أحد يمنع ما أراده الله، ولا أحد يستطيع هذا.

إذًا كل الناس عبيد لله، وهذه هي العبودية العامة، وعابد هنا بمعنى المعبد، يعني مذلل مقهور تنفذ فيه قدرة الله ومشيئته رضي أو لم يرض، شاء أو لم يشأ، علم أو لم يعلم اعترف أو أنكر، كل عبدٌ لله ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدًا﴾.

---

(١) سورة آل عمران: ٨٣.

kutub-pdf.net

فهو سبحانه رب العالمين، وخالقهم ورازقهم، ومحييهم ومميتهم، ومقلب قلوبهم، ومصرف أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق لهم إلا هو، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، وسواء علموا ذلك أو جهلوه، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك، وآمنوا به، بخلاف من كان جاهلاً بذلك، أو جاحدًا له، مستكبرًا على ربه، لا يقر ولا يخضع له، مع علمه بأن الله ربه وخالقه.

فالمعرفة بالحق إذا كان مع الاستكبار عن قبوله والجحد له، كان عذابًا على صاحبه، كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[(١)]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[(٣)].

القسم الثاني: العبد بمعنى العابد، الذي عبد الله باختياره فأطاع أمره وأمر رسوله، فصلى، وصام، وزكى وأدى فرائض الله، وأطاع أمر الله وأمر رسوله ﷺ ووالى أولياءه وعادى أعداءه باختياره، هذا عبد الله على الحقيقة، هذه هي العبودية الخاصة، التي من حققها أثابه الله.

أما العبودية العامة فهذه بدون اختيار الناس وبدون اختيار المخلوقين، فهم عبيد لله بدون اختيارهم ليس لهم خروج عن عبودية الله.

والعبودية التي يُمدح الإنسان ويُثنى عليه بها، هي العبودية الخاصة، التي تكون عن اختيار وعن طوع.

---

(١) سورة النمل: ١٤.

(٢) سورة البقرة: ١٤٦.

(٣) سورة الأنعام: ٣٢.

kutub-pdf.net

....

أما العبودية العامة فلا يذم فيها أحد ولا يمدح فيها أحد، لأن الناس كلهم مشتركون فيها مؤمنهم وكافرهم، فكل الناس عبيد لله بمعنى العبودية العامة، أما العبودية الخاصة فتكون عن اختيار المخلوق ورغبته فيعبد الله باختياره.

ولهذا بين المؤلف رحمه الله، قال: فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومدبرهم ومحييهم ومميتهم، ما أحد يخرج عن هذا، ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

ولكن أهل الإيمان علموا بذلك واعترفوا به، أما الجاهل أو الجاحد المستكبر على ربه فهذا لا يقر ولا يخضع، لكن هو عبد سواء اعترف أو ما اعترف، وسواء علم أو لم يعلم، سواء اقر أو لم يقر، لكن إذا عرف واستكبر على عبادة الله تكون هذه المعرفة عذابًا عليه، كما قال الله تعالى عن فرعون وقومه ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم أي: الآيات التي جاءت إليهم، فنفوسهم مستيقنة ولكن جحدوا ظلما وعلوا، فانظر كيف كانت عاقبة المفسدين. وقال عن اليهود ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ يعني الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يعرفون أنه رسول الله لكن ما آمنوا، فهل تنفع هذه المعرفة؟ لا تنفع، ولهذا قال سبحانه وتعالى ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وقال عن كفار قريش ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي يا محمد ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ لا يكذبونك في الباطن لكن يجحدون في الظاهر.

kutub-pdf.net

فإذا عرف العبد أن الله ربه وخالقه، وأنه مفتقر إليه محتاج إليه، عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله.

وهذا العبد يسأل ربه، ويضرع إليه ويتوكل عليه.

لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه، وقد يعبده مع ذلك، وقد يعبد الشيطان والأصنام.

ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار.

ولا يصير بها الرجل مؤمنًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم

وقوله **فإذا عرف العبد**: إذن فالعبودية العامة هي المتعلقة بربوبية الله، وأن الله هو رب كل شيء وخالقه ومليكه ومدبره. وأما العبودية الخاصة فمتعلقه بألوهية الله وبعبادة الله وتوحيده والإخلاص له عن طواعية واختيار ورغبة ورهبة.

وقوله **وهذا العبد**: والعبد هنا بمعنى العابد الذي عبد الله باختياره عبودية خاصة، وهو الذي يسأل ربه ويتضرع إليه.

وقوله: **لكن قد يطيع**: وهذه العبودية العامة، فإذا عرف الإنسان أن الله ربه وخالقه ومفتقر إليه اعترف بالربوبية العامة، لكن لا يكفي الوقوف عند الربوبية العامة. لأن الناس الذين يعترفون بربوبية الله ينقسمون إلى قسمين منهم من عبد الله عن طوائعه واختياره، ومنهم من وقف عند الربوبية العامة ولم يعبد الله.

وقوله **ومثل هذه العبودية**: هذه العبودية العامة لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار، أهل الجنة وأهل النار كلهم عبيد لله بمعنى العبودية العامة.

وقوله **ولا يصير بها**: هذا فيه بيان بأن المشركين أقروا برببية الله، لكن ما نفعهم هذا لأنهم ما عبدوا الله وما انقادوا لرسوله ولا اتبعوه فلا ينفع الاعتراف بالربوبية العامة وحده.

kutub-pdf.net

مُشْرِكُونَ﴾[1] فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم وهم يعبدون غيره، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[2] . وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[3].

وكثير ممن يتكلم في الحقيقة، فيشهدها، لا يشهد إلا هذه الحقيقة، وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها وفي معرفتها المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

بل وإبليس معترف بهذه الحقيقة، وأهل النار: قال إبليس: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[4]. وقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[5].

وقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[6] وقال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[7].

وقوله وكثير ممن: هذه الحقيقة الكونية هي الاعتراف بربوبية الله ونفوذ قدرته ومشيئته يشترك فيها المؤمن والكافر، حتى إبليس مقربها، وفرعون مقربها.

وقوله إبليس: هذا كله دليل على أن إبليس معترف بالربوبية، قال: رب، معترف بربوبية الله لكن ما نفعه لأنه استكبر عن عبادة الله وامتثال أمره، وتخلفت العبودية الخاصة فما نفعه ذلك.

---

(١) سورة يوسف: ١٠٦.
(١) سورة الزمر: ٣٨.
(٢) سورة المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩.
(٣) سورة ص: ٧٩.
(٤) سورة الحجر: ٣٩.
(٥) سورة ص: ٨٢.
(٦) سورة الإسراء: ٦٢.

kutub-pdf.net

وأمثال هذا من الخطاب الذي يقر فيه بأن الله ربه وخالقه وخالق غيره، وكذلك أهل النار قالوا: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾[1] وقال تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾[2].

فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها، ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الدينية، التي هي عبادته المتعلقة بالألوهيته وطاعة أمره وأمر رسوله، كان من جنس إبليس وأهل النار.

فإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق، الذين سقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان، كان من أشر أهل الكفر والإلحاد.

وقوله وأمثال هذا: إذ أهل النار اعترفوا بالربوبية العامة، قالوا: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾، قالوا ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، لكن ما نفعهم هذا لأن العبودية الخاصة تخلفت.

قوله فمن وقف: هكذا من وقف عند الحقيقة الكونية ولم يعبد الله فلم ينفعه يكون من جنس إبليس، فإن كان يظن بعض أولئك أنه من الأولياء وأنه يسقط عنه الأمر والنهي كما **يقول بعض الصوفية**؛ يظن أنه إذا استغرق في شهود الحقيقة الكونية سقط عنه الأمر والنهي، كان شراً من أهل الكفر والإلحاد والعياذ بالله، والصوفية كما سيفصل المؤلف رحمه الله يظن بعضهم أنه يكفي أن ينظر إلىٰ ربوبية الله وعموم مشيئة ونفوذ قدرته ومشيئته تكفي هذا ولا يمتثل أوامر الله ولا يجتنب نواهيه، وسقط عنه التكاليف، يقول المؤلف عن هذا أنه شر أهل الكفر والإلحاد.

---

(١) سورة المؤمنون: ١٠٦.

(٢) سورة الأنعام: ٣٠.

kutub-pdf.net

ومن ظن وغيره سقط عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة ونحو ذلك، كان قوله هذا من شر أقوال الكافرين بالله ورسوله.

حتى يدخل في النوع الثاني من معنى العبد، وهو العبد بمعنى العابد. فيكون عابدًا لله، لا يعبد إلا إياه، فيطع أمره وأمر رسله، ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين ويعادي أعداءه.

وهذه العبادة متعلقة بالإلهية الله تعالى، ولهذا كان عنوان التوحيد «لا إله إلا الله». بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبده، أو يعبد معه إلهًا آخر.

فالإله: هو الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، والخوف والرجاء، ونحو ذلك.

وهذه العبادة: هي التي يحبها الله ويرضاه، وبها وصف المصطفين من عباده، وبها بعث رسله.

وقوله ومن ظن وغيره: بعض الصوفية يظن أن الخضر لما قتل الغلام وخرق السفينة ، أنه سقط عنه الأمر ، وهذا كذب ، والصواب أن الخضر نبي يوحى إليه ، وهذا فعله بوحي ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿وما فعلته عن أمري﴾ ، وعلى القول الثاني أنه عبد لله ، ولكن لا يسقط عنه الأمر ، والصواب أنه نبي .

وقوله حتى لا يدخل في: هذا النوع الثاني من العبودية : العبد بمعنى العابد ، فالأول العبد : بمعنى المعبد وهي العبودية العامة ، وهذا العبد بمعنى العابد وهي العبودية الخاصة ، فيكون عابد لله لا يعبد إلا إياه فيطيع أمره وأمر رسوله ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه ، وهذه هي العبودية الخاصة .

وقوله وهذه العبادة: هذه العبادة خاصة متعلقة بإلهية الله ، وقلنا إن العبودية العامة متعلقة بربوبية الله ، والعبودية الخاصة متعلقة بإلهية الله وعبادته ، والذي ينفع العبد هي العبودية الخاصة . أما العبودية العامة فهذه مشتركة بين المؤمن والكافر .

وقوله فالإله: فالعبادة الخاصة المتعلقة بإلهية الله هي التي يحبها الله ويرضاها .

kutub-pdf.net

وأما العبد: بمعنى المعبد، سواء أقر بذلك أو أنكره، فهذا المعنى يشترك فيه المؤمن والكافر.

وبالفرق بين هذين النوعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة في عبادة الله ودينه وأمره الشرعي التي يحبها ويرضاها ويوالي أهلها ويكرمهم بجنته، وبين الحقائق الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، التي من اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية، كان من أتباع إبليس اللعين، والكافرين برب العالمين، ومن اكتفى فيها ببعض الأمور دون بعض، أو في مقام [دون مقام] أو حال [دون حال] نقص من إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية.

وهذا مقام عظيم غلط فيه الغالطون، وكثر في الاشتباه على السالكين، حتى زلق فيه من أكابر الشيوخ المدعين للتحقيق والتوحيد والعرفان، ما لا يحصيه إلا الله الذي يعلم السر والإعلان.

وإلى هذا أشار الشيخ عبد القادر[(١)] - رحمه الله - فيما ذكر عنه، فبين أن كثيراً من

وقوله وأما العبد: فهذه العبودية العامة، العبد بمعنى المعبد.

وقوله وبالفرق بين: هكذا لابد من التفريق بين العبودية العامة والعبودية الخاصة، من وقف عند العبودية العامة كان من اتباع إبليس، ومن عبد الله العبودية الخاصة فهو من اتباع محمد ﷺ، وإذا حصل له نقص في العبادة حصل له من النقص في دينه وعبادته بحسب النقص الذي انتقصه.

وقوله وهذا مقام عظيم: فكثير من شيوخ الصوفية وقفوا عند الربوبية العامة وظنوا أن هذا يكفي واعتقدوا أنه يسقط عنهم الأمر والنهي فهلكوا مع الهالكين.

وقوله وإلى هذا أشار الشيخ عبد القادر: يقول المؤلف رحمه الله إن الشيخ

---

(١) هو الجيلاني زاهد العُلماء الذهاد له كتاب (الغُنية) وهو مطبوع مشهور، توفي سنة (٥٦١)هـ انظر سير أعلام النبلاء [٢٠/ ٤٥١].

kutub-pdf.net

الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا فإني انفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعًا للقدر، لا من يكون موافقًا للقدر.

عبد القادر الجيلاني، وهو من علماء الحنابلة ورجل صالح له كتاب الغنية، ولكن مع الأسف أن له قبراً يعبد ويطاف به، يقول: إن الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله فيما ذكر، كثير من الرجال إذا وصلوا إلىٰ القضاء والقدر أمسكوا، أي أمسكوا ويستسلمون إلىٰ القضاء والقدر ولا يتحركوا ويقول أحدهم قدّر الله عليّ المعصية، ولا يتوب بل يستسلم للقضاء والقدر، يقول هذا غلط أما أنا فإنه انفتح لي روزنةٌ الروزنة هي الكوةٌ فنازعت أقدار الحق بالحق للحق. يعني يقول أنا ما وقفت عند القدر، بل نازعت أقدار الحق، الحق الأولىٰ: رؤيا الله، بالحق: يعني من أجل الحق، والمعنىٰ أنني مـــا اقف عند القدر، وأقول المعصية مقدرة، فإذا قدر الله علىٰ المصعية لا أسكت بل أتوب إلىٰ الله وأدفع قدر بقدر، أدفع قدر المعصية بقدر الطاعة والتوبة، فأتوب إلىٰ الله ولا أقف.

كثير من الشيوخ يقول هذه معصية مقدرة عليّ، أو هذا الكفر مقدر نسأل الله العافية، فهو يقول: هذا غلط، وهو لم يقف عند هذا بل انفتحت لي روزنة، فنازع قدراً بقدر، المعصية مقدرة والتوبة مقدرة، لا تسكت فتستسلم وقعت في معصية فتب إلىٰ الله، ولا تقل المعصية مقدرة وقل التوبة مقدرة، ونازع قدر بقدر، فإذا حصلت معصية اتبعها بحسنة (واتبع السيئة الحسنة تمحوها) فلا تقف ولا تقول انظر إلىٰ القدر فقط، بل أنت مأمور شرعا بأن تفعل الأوامر وتجتنب النواهي ولا تقف عند النظر إلىٰ القدر.

kutub-pdf.net

والذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي أمر الله به ورسوله.

ولكن كثيرًا من الرجال غلطوا فيه، فإنهم قد يشهدون ما يقدر على أحدهم من المعاصي والذنوب، أو ما يقدر على الناس من ذلك، بل من الكفر، ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره، داخل في حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته، فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضى به ونحو ذلك، دينًا وطريقًا وعبادة، فيضاهئون المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[١].

وقالوا: ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾[٢]. وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾[٣]. ولو هدوا لعلموا أن القدر أمرنا أن نرضى به، ونصبر على موجبه في المصائب التي تصيبنا، كالفقر والمرضى والخوف. قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[٤].

وقوله والذي ذكره الشيخ: يعني أن الإنسان لا يحتج بالقدر على المعصية بل يتوب إلى الله، فإذا استسلم لذلك صار موافق المشركين الذين يحتجون بالقدر، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فاحتجوا بالمشيئة.

وقوله وقالوا أنطعم: هكذا يصير الإنسان على المصائب ويرضى بما قضى الله وقدر ويفعل الأسباب المشروعة.

---

(١) سورة الأنعام: ١٤٨.

(٢) سورة يس: ١٤.

(٣)سورة الزخرف: ٢٠.

(٤) سورة التغابن: ١١.

kutub-pdf.net

قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾(١).

وفي «الصحيحين»(٢) عن النبي ﷺ أنه قال: «احتج آدم وموسى. فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، فهل وجدت ذلك مكتوبًا علي قبل أن أخلق؟ قال: نعم. قال: فحج آدم موسى».

وآدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل، ولو كان هذا عذر لكان عذرا لإبليس، وقم نوح، وقوم هود، وكان كافر.

ولا موسى لام آدم أيضا لأجل الذنب، فإن آدم قد تاب إلى ربه فجتابه وهدى، ولكن لامه لأجل المصيبة التي لحقتهم بالخطيئة. ولهذا قال: «فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟» فأجابه آدم: إن هذا كان مكتوبًا علي قبل أن أخلق.

فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدرًا، وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنه من تمام الرضى بالله رباً.

وقوله قال بعض السلف: هذه القصة التي وقعت بين آدم وموسىٰ عليهم الصلاة والسلام، هو أن موسىٰ عليه الصلاة والسلام لام أدم قال: كيف أخرجتنا ونفسك من الجنة، فاحتج آدم بأن هذا مكتوب عليّ، قال الذي حاج آدم موسىٰ وفي لفظًا كرره ثلاث قال فحاج آدم موسىٰ، فحاج آدم موسىٰ، فحاج آدم موسىٰ، والمعنىٰ غلبه وخصمه بالحجة، وذلك أن موسىٰ لام آدم علىٰ

---

(١) سورة الحديد: ٢٢-٢٣.

(٢) رواه البخاري ٣٤٠٩، ٤٣٠٩، ومسلم ٢٦٥٢.

kutub-pdf.net

وأما الذنوب، فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من صنوف المعايب ويصبر على المصائب. قال تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾(٢). وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(٣) . وقال يوسف عليه السلام: ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

المصيبة وهي الخروج من الجنة، فقال آدم: المصيبة مكتوبة علي فلذلك غلبه بالحجة. وجاء في موضع آخر لشيخ الإسلام رحمه الله أنه قال: أنه لامه علي الذنب بعد أن تاب منه، والإنسان لا يلام على الذنب بعد أن تاب منه، فالمقصود أن الذنب قبل التوبة منه ليس حجه، الذنب لا يكون حجه ولو كان الذنب حجه لكان حجة لكل كافر، فالمقصود أن آدم غلب موسى بالحجة لأنه أحتج بالقدر على المصيبة أو على الذنب بعد التوبة.

وأما قوله، وأما الذنوب: هكذا مفهوم المسلم يجاهد نفسه حتى لا يقع في الذنب فإذا وقع في الذنب جاهد نفسه بالتوبة، والمصيبة يصبر عليها، يصبر ولا يجزع ولا يتسخط، يحبس نفسه عن الجزاء، ولسانه عن التشكي، وجوارحه عما يغضب الله.

---

(١) سورة المؤمنون: ٥٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٦.

(٤) سورة يونس: ٩٠.

kutub-pdf.net

وجوب الأمر بالمعروف

وكذلك ذنوب العباد، يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته، ويجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، ويحب في الله ويبغض في الله.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[٢].

وقوله **وكذلك ذنوب**: وما سبق هذا في ذنوب العبد، فالإنسان ليس له أن يذنب فإذا وقع في الذنب تاب منه، وصبر على المصائب، أما ذنوب غيره فموقفه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجاهد في سبيل الله، يجاهد الكفار بالسلاح والمال، ويجاهد المنافقين بالحجة والبيان، ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله.

وقوله **كما قال الله تعالى**: هكذا بين المؤلف رحمه الله أن موقف المؤمنين الموالاة في الله والمعاداة في الله، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

---

(١) سورة الممتحنة: ١ ـ ٤.

(٢) سورة المجادلة.

وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾(١). وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا

وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهذا هو موقف الإنسان من ذنوب العباد؛ فالإنسان يجاهد يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ويجاهد في سبيل الله، يوالي في الله ويعادي في الله ويبغض في الله ويحب في الله.

وقوله أفنجعل المسلمين: وهذه الآيات فيها بيان الفرق بين المؤمنين والكفار وبين الأبرار والفجار ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ بين الله الفرق بين المشرك والكافر فضرب سبحانه الأمثلة؛ ضرب الله مثلاً في بيان حسن التوحيد وقبح الشرك، وضرب الله مثلاً عبداً مملوكًا لا يقدر علىٰ شيء، وضرب الله مثلاً الرجلين أحدهما أبكم، وكل

---

(١) سورة القلم: ٣٥.

(٢) سورة ص: ٢٨.

(٣) سورة الجاثية: ٢١.

(٤) سورة فاطر ١٩ ـ ٢٢.

(٥) سورة الزمر: ٢٩.

kutub-pdf.net

فهو ينفق منه سرًا وجهرًا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴿٧٥﴾ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾(١).

وقال تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾(٢).

ونظائر ذلك مما يفرق الله فيه بين أهل الحق والباطل، وأهل الطاعة والمعصية، وأهل البروالفجور، وأهل الهدى والضلال، وأهل الغي والرشاد، وأهل الصدق والكذب.

فمن شهد الحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية، سوى بين هذه الأصناف المختلفة التي فرق الله بينها غاية التفريق.

حتى تؤول به هذه التسوية إلى أن يسوي بين الله وبين الأصنام، كما قال تعالى عنهم: ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين ﴿٩٧﴾ إذ نسويكم برب العالمين﴾(٣).

هذا في بيان حسن التوحيد وقبح الشرك، وقال تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾، فلابد من التفريق فمن لم يفرق صار من أهل العبودية العامة، ومن فرق بينهم صار من أهل العبودية الخاصة.

وقوله ونظائر ذلك: يعني من شهد الحقيقة الكونية وهي ربوبية الله العامة سوى بين المؤمن والكافر، وبين البر والفاجر، ومن شهد الحقيقة الدينية فرق بينهم.

وقوله حتى تؤول به: وكلامهم هذا في النار، وهم يندمون على أن سووا الأصنام برب العالمين.

---

(١) سورة النحل: الآيتان: ٧٥-٧٦.

(٢) سورة الحشر: ٢٠.

(٣) سورة الشعراء: ٩٧-٩٨.

kutub-pdf.net

بل قد آل الأمر بهؤلاء إلى أن سووا الله بكل موجود، وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقًا لكل موجود، إذ جعلوه هو وجود المخلوقات.

وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب العباد.

وهؤلاء يصل بهم الكفر إلى أنهم لا يشهدون أنهم عباد الله، لا بمعنى أنهم معبدون، ولا بمعنى أنهم عابدون.

وقوله **بل قد آل الأمر**: هؤلاء هم الاتحادية والعياذ بالله الذين يقولون اتحد الخالق والمخلوق، فالخالق والمخلوق شيء واحد، الرب هو العبد، والعبد هو الرب، والخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق، هؤلاء تجاوزا شهود الحقيقة الكونية بل إنهم قالوا إن الوجود واحد، وما فرقوا بين الخالق وبين المخلوق فهم أعظم الناس كفرًا، فأعظم الناس كفرا الاتحادية.

وقوله **وهؤلاء يصل بهم**: أي لا بمعنى أنهم معبدون هذه العبودية العامة، ولا بمعنى أنهم عابدون العبودية الخاصة، فلا هذا ولا هذا، وبذلك تجاوزوا النوعين فشهدوا على أنفسهم أنهم هم الخالق والمخلوق، وهم الرب والعبد جميعًا نعوذ بالله، وممن يقول بهذا القول ابن عربي رئيس وحدة الوجود، وابن سبعين، والملاحدة الذين جحدوا الوجود.

وخلاصة ما سبق هو أن العبادة بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وبين رحمه الله أن العبودية تنقسم إلى قسمين عبودية عامة وعبودية خاصة، والعبودية العامة وهي ربوبية الله، شامل لكل مخلوق، كل مخلوق هو عبد لله بمعنى أنه معبد مدبر تنفذ فيه قدرة الله ومشيئته شاء أم أبى، علم أو لم يعلم، رضي أو لم يرض. أما العبودية الخاصة فهي متعلقة بإلهيته سبحانه وتعالى وطاعة أمره وأمر رسوله. والذي يعبد الله عن طواعية واختيار هم المؤمنون، وهذه العبودية خاصة بالمؤمنون. أما العبودية

kutub-pdf.net

....

العامة فهي شاملة للمؤمن والكافر .

وبين رحمه الله أن من الناس من يشهد الحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية ، الحقيقة الكونية هي ربوبية الله العامة لكل شيء ، فبعض الناس يشهد الحقيقة الكونية أي يشهد ربوبية الله لكل شيء وأنه تنفذ فيه قدرته ومشيئته ، ويقف عند هذا الحد ، ولا يتجاوزها إلى الحقيقة الدينية وهي عبادته المتعلقة بإلهيته وطاعة أمره وأمر رسوله .

والذين يشهدون الحقيقة الكونية ويقفون عندها بين المؤلف رحمه الله أنهم أقسام وأنه قد يصل الحال ببعض الذين يشهدون الحقيقة الكونية إلى أن يصلوا إلى القول بوحدة وجودها ، وهذا غاية الكفر نسأل الله العافية . والذين يشهدون الحقيقة الكونية من الصوفية وغلاة الصوفية قد يصل بهم الأمر إلى القول بوحدة الوجود نسأل الله السلامة والعافية . يعني يشهدون بربوبية الله في كل شيء وأن قدرته نافذة في كل شيء ، وأنه لا خروج له عن إرادة الله ، ثم يصل به الحال إلى أنه يتجاوز هذا فيرى نفسه أنه هو الله ، وأنه هو الخالق والمخلوق ، وهو العبد وهو المعبود ، فتجاوزوا الحقيقة الدينية ، وهؤلاء بلغوا الغاية في الكفر نسأل الله السلامة والعافية ، حيث يقولون بوحدة الوجود ، وسبب ذلك غلوهم في شهود الحقيقة الكونية .

و هناك قسمٌ آخر ممن شهد الحقيقة الكونية يحتجو بالقدر في كل شيء يخالون فيه الشريعة فيحتجوا بالقدر احتجاجا مطلقًا عاما .

وهناك طائفة ثالثة يرون أن الشريعة والتكاليف لازمة لمن أثبت لنفسه صفات وأثبت لنفسه فعلاً ، فمن أثبت لنفسه أفعالاً وأثبت لنفسه صفات فالتكاليف لازمة له ، أما من شهد إرادة الله الكونية ولم يجعل لنفسه صفات

إذ يشهدون أنفسهم هي الحق، كما صرح بذلك طواغيتهم كابن عربي صاحب «الفصوص» وأمثاله الملحدين المفترين، كابن سبعين، وأمثاله، ويشهدون أنهم هم العابدون والمعبودون.

ولا أفعال فإنه يسقط عنه التكاليف، ويقسمون الناس إلى قسمين: قسم الخاصة وقسم العامة، فالعامة عليهم التكاليف، والأوامر والنواهي، والخاصة الذين شهدوا الإرادة الكونية وألغوا صفاتهم وأفعالهم وجعلوها صفة لله تسقط عنهم التكاليف.

وهناك قسما رابع: من الذين يحتجون بالقدر يؤدون الواجبات وينتهون عن المحرمات إلا أنهم يتركون الأسباب التي أمروا بها شرعًا، وهذا نقص عظيم، وقد تكون الأسباب واجبة وقد تكون مستحبة.

وهناك قسم خامس: يفعلون الواجبات لكن يتركون المستحبات، فهؤلاء يحصل لهم نقص عظيم ويفوتهم خير عظيم من الثواب ومن الأجر.

وهناك قسم سادس: يشتغلون بما يحصل لأحدهم من بعض خوارق العادات إما مكاشفة أو استجابة دعاء فيشتغل بذلك عما أمر به من عبادة الله وشكره.

هذه أقسام النا س الذين يحتجون بالقدر وبيَّنهم المؤلف رحمه الله، فقال:

وأما قوله إذ يشهدون: هذا هو القسم الأول ممن شهد الحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية يسوون بين الأجناس المختلفة، يسوون بين المؤمنين وبين الكفار، وبين الأبرار وبين الفجار، بل يسوون بين الله وبين الأصنام، بل يصل بهم الحال إلى أن يجعلوا وجوده واحد فيجعلون الخالق عين المخلوق، والمخلوق عين الخالق، والرب عين العبد، والعبد عين الرب، فلا يشهدون أنفسهم أنهم معبدون ولا عابدون، بل يشهدون أنفسهم هم المعبود وهم العابد وهو الرب وهو العبد وهو الخالق وهو المخلوق.

ومن هؤلاء الملاحدة رئيسهم محيي الدين ابن عربي، وابن سبعين

kutub-pdf.net

....

والعفيف التلمساني وغيرهم، حتى يقول ابن عربي من أبياته المشهورة:

الرب عبد والعبد ربٌّ يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبدا فذاك ميتا أو قلت ربا أنى يكلف

يقول ما الفرق بينهم؟العبد هو الرب والرب هو العبد فأيهما المكلف، ومن كلماته يقول: **ربًا مالك وعبدًا هالك وأنم ذلك، ويقول أيضًا**: من أسماء الله الحسنى العلي، ثم يقول على على ما ذا؟ وما سمي إله وعن ماذا وما هو إله، هكذا والعياذ بالله، يقول إن كل شيء تراه في الوجود هو الله، سر حيث شئت فإن الله ثم وقل ما شئت فيه فالواسع الله، كل شيء تراه هو الله وهذا التعدد هو وحده، هكذا يصل الحال بهؤلاء الذين يقولون بوحدة الوجوده، يقولون ما في رب ولا عبد، أنت العبد وأنت الرب، وأنت الخالق وأنت المخلوق، فيقولن هذا وهذا وهم، وهذه مظاهر لتجلي الحق، الله تجلى بصورة معبود كما تجلى في صورة فرعون، ويتجلى في صورة هادٍ كما يتجلى في صورة الرسل، وهؤلاء يقولون: كل من عبد شيئًا فهو على حق وعلى صواب، فالذي يعبد الأصنام على حق، والذي يعبد النار على حق، والذي يعبد الأشجار على حق، كل شيء يكون على حق والعياذ بالله، والذي يخصص ويقول لا يعبد إلا شيئًا واحدًا فهذا هو الكافر، فعندهم الكفر في التخصيص، يقولون الله واسع كل شيء، وابن عربي له معارضات يعارض فيها القرآن الكريم وقصة قوم نوح، وقصة قوم هود لهم معارضات ورموز نسأل الله السلامة والعافية، حتى إنهم يقولون إن فرعون مصيب حين قال أنا ربكم الأعلى، فهو على حق وعلى صواب، وعباد الأصنام كذلك على صواب، ويعللون غرق فرعون فيقولون: لأنه ظن أنه هو المعبود فقط أغرق حتى يزول هذا الحسبان، ويقول كل الناس رب، فأغرق حتى يزول هذا الحسبان، حتى يزول هذا التوهم فأغرق وطهر

kutub-pdf.net

وهذا ليس بشهود الحقيقة، لا الكونية ولا الدينية، بل هو ضلال وعمى عن شهود الحقيقة الكونية، حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق، وجعلوا كل وصف مذموم وممدوح نعتًا للخالق والمخلوق، إذ وجود هذا هو وجود هذا عندهم.

وأما المؤمنون بالله ورسوله، عوامهم وخواصهم، الذين هم أهل القرآن، كما قال النبي ﷺ: «إن لله أهلين من الناس».

قيل: من هم يا رسول الله؟

قال: «أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته»(١).

فهؤلاء يعلمون أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، وأن الخالق سبحانه مباين للمخلوق. ليس هو حال فيه، ولا متحد به، ولا وجوده وجوده.

فصار إغراقه تطهيرًا له ليزول الحسبان والتوهم الذي توهم أنه هو المعبود فقط، هكذا يقولون نعوذ بالله. وهذه هي الطائفة الأولى كما قال المؤلف رحمه الله، الذين شهدوا الحقيقة الكونية يسوون بين الخالق وبين المخلوق وبين العابد وبين المعبود يشهدون أنفسهم هي الحق، يعني هو الله.

وقوله وهذا ليس بشهود: هذا هو الذي عليه المؤمنون عوامهم وخواصهم، أي علماءهم وغير علمائهم هم أهل الله وأهل القرآن، يفرقون بين الخالق والمخلوق، ويقولون إن الخالق مباين للمخلوق منفصلا عنه، ليس الله تعالى حالا في شيء من مخلوقاته، بل هو سبحانه وتعالى فوق العرش بعد أن تنتهي المخلوقات التي سقفها عرش الرحمن، فالله سبحانه وتعالى فوق العرش لم يدخل في ذاته شيئًا من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيئًا من ذاته، سبحانه

---

(١) أخرجه الطيالسي [٢١٣٤] وابن ماجه [٢١٥] وأحمد [٢/ ١٢٧] [٢٤٢] وأبو نعيم في الحلية [٣/ ٦٣] [٩/ ٤٠] من طريق عبد الرحمن بن بُديل عن أبيه عن أنس.

kutub-pdf.net

والنصارى إنما كفرهم الله إذ قالوا بالحلول واتحاد الرب بالمسيح خاصة. فكيف من جعل ذلك عامًا في كل مخلوق؟

ويعلمون مع ذلك أن الله أمر بطاعته وطاعة رسوله، ونهى عن معصيته ومعصية رسوله، وأنه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، وأن على الخلق أن يعبدوه فيطيعوا أمره، ويستعينوا على كل ذلك كما قال في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ومن عبادته وطاعته: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب الإمكان، والجهاد في سبيله لأهل الكفر والنفاق، فيجتهدون في إقامة دينه، مستعينين به، رافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات، دافعين بذلك ما قد يخالف من آثار ذلك، كما يزيل الإنسان الجوع الحاضر بالأكل، ويدفع به الجوع المستقبل. وكذلك إذا آن أوان البرد، دفعه باللباس، وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه، كما قالوا للنبي ﷺ : يا رسول الله! أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقى نتقي بها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ فقال: «هي من قدر الله»[(١)] وفي الحديث: «إن الدعاء والبلاء ليلتقيان، فيعتلجان بين السماء والأرض».

مباين منفصل عن المخلوقات، والمخلوقات تنتهي وسقفها عرش الرحمن، والله تعالىٰ فوق العرش، هذا هو قول جميع الطوائف ما عدا هؤلاء الملاحدة نعوذ بالله.

وقوله ومن عبادته هذه الحال المؤمنين بالله يجاهدون أنفسهم في أداء الفرائض والانتهاء عن المحارم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يحتجون بالقدر، وإن كان كل شيء مقدر، لكن يدفعون قدراً بقدر، فإذا وقع شيء من المنكر وإن كان مقدراً فعليك أن تدفعه بقدر آخر وتزيله بالتوبة وبالنصيحة وبتغيير المنكر، وهكذا. كما أن الإنسان مقدر عليه الجوع لكن هل

---

(١) رواه الترمذي ٢١٤٨، وابن ماجه ٣٤٣٧، والحاكم ٤/ ١٩٩، وأحمد ٣/ ٤٢١.

kutub-pdf.net

فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله، العابدين لله، وكل ذلك من العبادة.

وهؤلاء الذين يشهدون الحقيقة الكونية - وهي ربوبيته تعالى لكل شيء ويجعلون ذلك مانعًا من اتباع أمره الديني الشرعي على مراتب في الضلالة.

فغلاتهم يجعلون ذلك مطلقًا عامًا، فيحتجون بالقدر في كل ما يخالفون فيه الشريعة.

وقول هؤلاء شرمن قول اليهود والنصارى، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾(١) وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾(٢).

يستسلم للجوع أم يأكل؟، فالجوع مقدر والشبع مقدر والأكل مقدر، فأنت تدفع قدر بقدر، والبرد مقدر، لكن هل تستسلم للبرد ولا تستدفئ؟ والجواب أنك تستدفئ فهذا قدر وهذا قدر، فكذلك إذا وقعت المعصية لاتستسلم للمعصية بل تتوب إلى الله، وكذلك إذا وجدت أحداً يعمل المعصية فإنك تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، ولا تقل هذا مقدر وتسكت، فكل مقدر الشيء وضده، كلاهما مقدر كما في الحديث (إن الدعاء والبلاء لا يعتلجان)، والدعاء مقدر والبلاء مقدر، كلاهما مقدر، ومع ذلك أنت مأمور بالدعاء.

وقوله وهؤلاء الذين يشهدون: وهؤلاء في المرتبة الثانية بعد الاتحادية، - فالاتحادية يتجاوزن الحقيقة الكونية فيجعلون أنفسهم هم الخالقون وهم المخلوقون، ثم يأتي هؤلاء يشهدون الحقيقة الكونية ويحتجون بالقدر في كل شيء يخالفون فيه الشريعة، فهؤلاء في المرتبة الثانية.

---

(١) سورة الأنعام: ١٤٨.

(٢) سورة الزخرف: ٢٠.

kutub-pdf.net

وهؤلاء من أعظم أهل الأرض تناقضًا، بل كل من احتج بالقدر فإنه متناقض. فإنه لا يمكن أن يقر كل آدمي على ما يفعل، فلا بد إذا ظلمه ظالم، أو ظلم الناس ظالم، وسعى في الأرض بالفساد، وأخذ يسفك دماء الناس، ويستحل الفروج ويهلك الحرث والنسل ونحو ذلك من أنواع الضرر التي لا قوام للناس بها، أن يدفع هذا القدر وأن يعاقب الظالم بما يكف عدوانه وعدوان أمثاله. فيقال له: إن كان القدر حجة، فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك، وإن لم يكن حجة بطل أصل قولك: إن القدر حجة.

وأصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية، لا يطردون هذا القول ولا يلتزمونه، وإنما هم يتبعون آراءهم وأهواءهم، كما قال فيهم بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به.

وقوله وهؤلاء من أعظم: هؤلاء الذين يحتجون بالقدر في كل شيء متناقضون، ولا يستطيعون أن يحتجوا بالقدر في كل شيء، بل هم يحتجون به في أمور الدين، فإذا تركوا الواجبات احتجوا بالقدر، وإذا فعلوا المحرمات احتجوا بالقدر، لكن في أمور دنياهم لا يحتجون بالقدر، لو جاء إنسان وضربه لا يقول هذا مقدر ويسكت، بل يطالب بحقه، ولو جاء إنسان وأخذ ماله فإنه يطالب بحقه، ولا يسكت، ولو جاء إنسان وقطع عضواً منه لا يسكت ولا يقول هذا مقدر، فيقال له لا تناقض إن كان القدر حجة فدع كل شيء يفعل بك وبغيرك، وإن لم يكن حجة بطل أصل قولك، فلماذا تحتج به في أمور الدين ولا تحتج به في أمور الدنيا؟!.

وقوله وأصحاب هذا القول: أي أنهم لا يطردون ولا يستمرون على مذهبهم يحتجون به في كل شيء، بل يحتجون به فيما يناسبهم ولا يحتجون به فيما لا يناسبهم، فإذا أراد أحدهم ترك الأوامر وفعل النواهي احتج بالقدر، وإذا أراد أن يطالب بحقوقه الدنيوية احتج به، فصار متناقضاً.

kutub-pdf.net

ومنهم صنف يدعون التحقيق والمعرفة، ويزعمون أن الأمر والنهي لازم لمن شهد لنفسه أفعالاً، وأثبت له صفات. أما من شهد أن أفعاله مخلوقة، أو أنه مجبور على ذلك، وأن الله هو المتصرف فيه كما يحرك سائر المتحركات، فإنه يرتفع عنه الأمر والنهي، والوعد، والوعيد.

وقد يقولون: من شهد الإرادة سقط عنه التكليف. ويزعمون أن الخضر سقط عنه التكليف لشهوده الإرادة.

وقوله ومنهم صنف: هذا أصلهم الثالث؛ وهو أنهم يقسمون الناس إلىٰ قسمين: قسم عليهم التكاليف، وقسم ليس عليهم التكاليف، فالقسم الذي عليهم التكاليف هم القسم الذين أثبوا أفعالاً لأنفسهم، وهؤلاء يسمون أهل الشريعة؛ عليهم أوامر وعليهم نواهي، ويجب عليهم أن يلتزموا بالشريعة، والقسم الثاني الخاصة الذين لم يثبوا لأنفسهم أفعالاً ولا صفات بل جعلوا أفعالهم هي أفعال الله وشهدوا إرادة الله، يشهدون الإرادة يعني يشهدون إرادة الله الكونية فقط، وينسون أنفسهم حتىٰ إن صفاتهم يجعلونها من صفة الله، فهؤلاء تسقط عنهم التكاليف ولا تكون عليهم تكاليف لا أوامر ولا نواهي، يفعلون ما يشاؤن، فهم يقسمون الناس إلىٰ قسمين عامة وخاصة، فالعامة يلتزمون بالشريعة والخاصة لا يلتزمون بل قد ارتفعوا وتجاوزا الشريعة، نسأل الله السلامة والعافية، ومن اعتقد هذا الاعتقاد فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافرًا، فليس هناك أحد يختص، خاصة الناس هم الأنبياء والرسل وهم أكبر الناس توحيدًا وإيمانًا وتحقيقًا لعبودية الله عز وجل، فمن زعم أن هناك أحد يسقط عنه التكليف وعقله ثابت معه ليس بصغير ولا مجنون ولا مخرف إلا الحائض والنفساء في سقوط الصلاة والصوم، فمن اعتقد أن أحدًا يسقط عنه التكاليف فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافرًا من قبل ولاة الأمور، قال تعالىٰ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي يأتيك الموت.

kutub-pdf.net

فهؤلاء يفرقون بين العامة والخاصة الذين شهدوا الحقيقة الكونية، فشهدوا أن الله خالق أفعال العباد، وأنه مريد ومدبر لجميع الكائنات.

وقد يفرقون بين من يعلم ذلك علمًا، وبين من يراه شهودًا، فلا يسقطون التكليف عمن يؤمن بذلك ويعلمه فقط، ولكن يسقطونه عمن يشهده، فلا يرى لنفسه فعلاً أصلاً.

وهؤلاء لا يجعلون الجبر وإثبات القدر مانعًا من التكليف على هذا الوجه.

وقد وقع في هذا طوائف من المنتسبين إلى التحقيق والمعرفة والتوحيد.

وسبب ذلك: أنه ضاق نطاقهم عن كون العبد يؤمر بما يقدر عليه خلافه. كما ضاق نطاق المعتزلة ونحوهم من القدرية عن ذلك.

ثم المعتزلة أثبتت الأمر والنهي الشرعيين دون القضاء والقدر، اللذين هما إرادة الله العامة

وقوله **فهؤلاء يفرقون**: أي يفرقون بين من يعلم فقط ومن يشهد، الذي يشهد لا يثبت لنفسه صفة بينما يجعل صفته هي صفة الله، فهذا يسقط عنه التكليف، أما الذي يعلم في نفسه وإنما يثبت لنفسه صفات وأفعال فهذا لا تسقط عنه التكاليف، وهذا أيضًا قول بعض الصوفية.

وقوله **وهؤلاء لا يجعلون**: يقول المؤلف إن المعتزلة أثبتوا الأمر والنهي الشرعيين لكن أنكروا عموم مشيئة الله وقدرته في الكائنات حتى تشمل أفعال العباد، فقالوا إن أفعالهم لم يخلقها الله، هم الذين خلقوها طاعات ومعاصي، حتى إذا عذب الله الإنسان على المعاصي يكون عذَّبه على أفعاله هو التي خلقها وأوجدها بنفسه. والله تعالى خالق كل شيء، خالق العباد وخالق أفعالهم، لكن المعتزلة يقولون: العباد هم الذين خلقوا أفعالهم من دون الله طاعات ومعاصي. فالمعتزلة أثبتوا الأمر والنهي ولم يثبتوا عموم الإرادة والمشيئة، وأما الجبرية فأثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنهي.

kutub-pdf.net

وخلقه لأفعال العباد.

وهؤلاء أثبتوا القضاء والقدر، ونفوا الأمر والنهي في حق من شهد القدر، إذا لم يمكنهم نفي ذلك مطلقًا.

وقول هؤلاء شر من قول المعتزلة.

لهذا لم يكن من السلف من هؤلاء أحد.

وهؤلاء يجعلون الأمر والنهي للمحجوبين الذين لم يشهدوا هذه الحقيقة الكونية.

ولهذا يجعلون من وصل إلى شهود هذه الحقيقة يسقط عنه الأمر والنهي، ويقولون: إنه صار من الخاصة.

وقوله وهؤلاء أثبتوا القضاء: أي يعني أن هؤلاء الجبرية ضد المعتزلة أثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنهي، فقالوا الإنسان مجبور وعلى هذا فلا يكلف ولا يؤاخذ بالمحرمات التي فعلها.

وقوله هؤلاء شر: وجه ذلك أن المعتزلة يعظمون الأمر والنهي يعظمون الشريعة بخلاف هؤلاء فأنهم لا يعظمون الأوامر والنواهي ولهذا صار قولهم شر من قول المعتزلة.

وقوله ولهذا لم يكن: هؤلاء الذين يحتجون بالقدر يجعلون الأمر والنهي للمحجوبين الذين ما شهدوا الحقيقة الكونية فهؤلاء عليهم التكاليف، أما الخاصة الذين انفتح لهم الباب وألغوا صفاتهم وجعلوها صفة لله تسقط عنهم التكاليف، فالناس قسمان: العامة، محجبون عن شهود الإرادة فعليهم تكاليف، والخاصة غير محجوبين فتسقط عنهم التكاليف ـ نسأل الله السلامة والعافية.

وقوله ولهذا يجعلون: صار من الخاصة وسقط عنه التكليف ووصل إلى الله، ألغى صفاته وأفعاله وجعلها صفة لله، صار يشهد الإرادة الكونية، أما العامة الذين لم يصلوا إلى هذه الدرجة فعليهم تكاليف.

kutub-pdf.net

وربما تأولوا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(١)، فاليقين عندهم، هو معرفة هذه الحقيقة.

وقول هؤلاء كفر صريح.

وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر، فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام، أن الأمر والنهي لا زمان لكل عبد ما دام عقله حاضراً إلى أن يموت، لا يسقطان عنه لا بشهوده القدر، ولا بغير ذلك.

وقوله وربما تأولو: أي ربما استدلوا على ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ فهم يستدلون بما يناسبهم ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ويفسرون اليقين بالعلم فمن وصل إلى العلم شهد الإرادة سقط عنه التكليف، أي اعبد ربك حتى تصل إلى اليقين، وحتى تصل إلى العلم وإلى شهود الإرادة، وعند ذلك انتهت العبادة فلا تعبد، وهذا من أبطل الباطل، وهواستدلال غير صحيح، وإنما المراد باليقين الموت، والمعنى استمر على عبادة ربك حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك، لكن هؤلاء لهم تفسير باطل.

وقوله **وقول هؤلاء كفر**: نعم قول هؤلاء كفر صريح والسبب أنهم خالفوا النصوص التي فيها أن جميع الناس مكلفون بعبادة الله، قال تعالى ﴿و ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ولم يستثن منهم أحداً ولا قال إن هناك قسم لا يعبدونه وهم الذين وصلوا إلى الله وصاروا من الخاصة، فهؤلاء قولهم كفر صريح.

وقوله **وإن وقع**: هذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام يعلمه كل أحد أن الأمر والنهي والتكاليف لازمة لكل عبد ما دام العقل معه ثابت، فإذا فقد العقل

---

(١) سورة الحجر: ٩٩.

kutub-pdf.net

فمن لم يعرف ذلك عُرِّفه وبُيِّن له، فإن أصر على اعتقاد سقوط الأمر والنهي، فإنه يقتل.

وقد كثرت مثل هذه المقالات في المستأخرين.

وأما المتقدمون من هذه الأمة فلم تكن هذه المقالات معروفة فيهم.

وهذه المقالات هي محادة لله ورسوله، ومعاداة له، وصد عن سبيله، ومشاقة له، وتكذيب لرسوله، ومضادة له في حكمه، وإن كان من يقول هذه المقالات قد يجهل ذلك، ويعتقد أن هذا الذي هو عليه، هو طريق الرسل، وطريق أولياء الله المحققين.

فهو في ذلك بمنزلة من يعتقد أن الصلاة لا تجب عليه، لاستغنائه عنها بما حصل له من الأحوال القلبية، أو أن الخمر حلال له، لكونه من الخواص الذين لا يضرهم شرب الخمر، أو أن الفاحشة حلال له، لأنه صار كالبحر لا تكدره الذنوب ونحو ذلك!.

سقط التكليف، وإذا صار الإنسان مجنونًا أو مخرفًا لكبر سنه أو صغيراً ما بلغ، فهذا ليس عليه تكليف، أما ما دام العقل معه فهذا لا يسقط عنه التكليف، هذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام، فمن قال إن أحداً هناك يسقط عنه التكليف يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافراً من قبل ولاة الأمور.

وقوله **فمن لم يعرف**: يعني يقتل من قبل ولاة الأمور يرفع به إلى المحكمة حتى يقام عليه الحد فليس معنى ذلك أن كل أحد يقتله. تكون المسئلة فوضى كل من رآى أحد قتله، ولكن المراد أن يقتل من قبل ولاة الأمور بعد أن يثبت عليه الحكم الشرعي، فإذا ثبت عليه هذا الاعتقاد حكم عليه بالقتل ويقتل.

وقوله **وقد كثرت**: هكذا يزعم بعض الصوفية، يزعمون المعرفة والحق، لكنهم هم من أبطل الباطل.

وقوله **فهو في ذلك**: وهذه اعتقادات فاسدة، حيث يعتقدون أن قسم منهم تسقط عنهم التكاليف، وهذا اعتقاد باطل بل من أبطل الباطل، وإن كانوا لا يعلمون هذا.

kutub-pdf.net

ولا ريب أن المشركين الذين كذبوا الرسول يترددون بين البدعة المخالفة لشرع الله، وبين الاحتجاج بالقدر على مخالفة أمر الله.

فهذه الأصناف فيها شبه من المشركين، لأنهم إما أبتدعوا، وإما أن يحتجوا بالقدر، وإما أن يجمعوا بين الأمرين، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(١). وكما قال تعالى عنهم: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾(٢).

وقد ذكر عن المشركين ما ابتدعوه من الدين الذي فيه تحليل الحرام، وعبادة الله بما لم يشرع الله، في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ﴾(٣) إلى آخر السورة.

وكذلك في سورة الأعراف في قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ إلى قوله ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(٤).

وقوله فهذه الأصناف: هذا كله من بدع المشركين ومن شريكياتهم، فكذلك هؤلاء يجمعون بين البدعة وبين الشرك فهم يشبهون المشركين الأولين. كذلك هؤلاء الصوفية الذين يحتجون بالقدر فيما يناسب أهواءهم.

---

(١) سورة الأعراف: ٢٨.

(٢) سورة الأنعام: ١٤٨.

(٣) سورة الأنعام: ١٣٨.

(٤) سورة الأعراف: ٢٦ـ٣٢.

kutub-pdf.net

وهؤلاء قد يسمون ما أحدثوه من البدع: حقيقة، كما يسمون ما يشهدون من القدر: حقيقة.

وطريق الحقيقة عندهم: هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، ولكن بما يراه ويذوقه، ويجده في قلبه مع ما فيه من غفلة عن الله جل وعلا. ونحو ذلك.

وهؤلاء لا يحتجون بالقدر مطلقًا. بل عمدتهم اتباع آرائهم وأهوائهم، وجعلهم لما يرونه وما يهوونه حقيقة. ويأمرون باتباعها دون اتباع أمر الله ورسوله، نظير بدع أهل الكلام من الجهمية وغيرهم، الذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفة للكتاب والسنة حقائق عقلية يجب اعتقادها دون ما دلت عليه السمعيات.

ثم الكتاب والسنة، إما أن يحرفوا القول فيهما عن مواضعه، وإما أن يعرضوا عنه بالكلية، فلا يتدبرونه ولا يعقلونه، بل يقولون: نفوض معناه إلى الله. مع اعتقادهم نقيض مدلوله.

وإذا حقق على هؤلاء ما يزعمونه من العقليات المخالفة للكتاب والسنة، وجدت جهليات واعتقادات فاسدة.

وقوله وهؤلاء قد يسمون: وهؤلاء هم أهل السلوك، كما يسمون أنفسهم وهم الصوفية الذين بزعمهم أنهم يسرون إلى الله، لكن يسيرون على حسب أذواتهم ومواجدتهم وأهوائهم، ولا يتقيدون بالشرع.

وقوله وطريق الحقيقة: أي أن هؤلاء يشبهون الجهمية، من حيث إن الجهمية يجعلون ويبتدعون من الأقوال المخالفة للكتاب والسنة ومن الآراء ما يسمونها حقائق وقواطع عقلية وبراهين يقنية، وأما نصوص الكتاب فيقولون هذه أدلة لفظية لا تفيد اليقين، فهم إما أن يحرفوها وإما أن يفوضوا معناها ويتمسكون بزعمهم بما دلت عليه العقول، والعقول متفاوتة متضاربة وهذا من جهلهم، وكذلك هؤلاء الصوفية يسمون ما تراه أنفسهم ذوقًا ووجدًا ويسيرون بحسب أهوائهم وشهواتهم.

kutub-pdf.net

وكذلك أولئك إذا حقق عليهم ما يزعمونه من حقائق أولياء الله، المخالفة للكتاب والسنة، وجدت من الأهواء التي يتبعها أعداء الله لا أولياءه.

وأصل ضلال من ضل، هو بتقديم قياسه على النص المنزّل من عند الله، وتقديم اتباع الهوى على اتباع أمر الله.

فإن الذوق والوجد ونحو ذلك هو بحسب ما يحبه العبد ويهواه. فكل محب له ذوق ووجد بحسب محبته وهواه.

فأهل الإيمان لهم من الذوق والوجد، مثل ما بينه النبي ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)[1].

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبياً)[2].

وقوله وكذلك أولئك: أي أن هذا هو أصل الضلال؛ تقديم القياس على النص المنزل من عند الله، وتقديم الهوىٰ علىٰ اتباع أمر الله، قال الله تعالىٰ: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم إنما يتبعون أهواءهم﴾، فهؤلاء يقدمون آراءهم، وأقيستهم وما تهواه نفوسهم وما يجدونه في نفوسهم من الآراء وما يزعمونه من العقليات علىٰ كتاب الله وسنة رسوله، وكذلك الصوفية يقدمون الذوق والوجد، وهذا هو أصل الضلال، فترك الكتاب والسنة وجعل بديل لهما من الأهواء والآراء والبدع والأذواق والمواجيد والأقيسة والعقول.

---

(١) رواه البخاري ١٦، ٢٢١، ٦٤١، ٤٠٦٤، ومسلم ١٤٣.

(٢) رواه مسلم ٣٤.

وأما أهل الكفر والبدع والشهوات، فكل بحسبه.

قيل لسفيان بن عيينة : ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم؟ فقال: أنسيت قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾(١) أو نحو هذا من الكلام.

فعباد الأصنام يحبون آلهتهم كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(٢).

وقال : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾.

وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾(٣).

ولهذا يميل هؤلاء ويغرمون بسماع الشعر والأصوات التي تهيج المحبة المطلقة، التي لا تختص بأهل الإيمان، بل يشترك فيها محب الرحمن ومحب الأوثان، ومحب الصلبان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب المردان، ومحب النسوان.

وهؤلاء الذين يتبعون أذواقهم ومواجيدهم، من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنة، وما

وقوله ما بال أهل الأهواء: أي الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل، ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ أي أن حب العجل كان سبب كفرهم، فعبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري وهم ينظرون ثم قال هذا ربكم فاعبدوه ـ نسأل الله العافية ـ وذلك لما ذهب نبي الله موسى لميقات الله عز وجل، صنع لهم السامري هذا العجل من الحلي وهم ينظرون وأمرهم بالعبادة له فعبدوه، قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ يعني حب العجل بسبب كفرهم.

---

(١) سورة البقرة: ٩٣.

(٢) سورة البقرة: ١٦٥.

(٣) القصص: ٤٠.

(٤) سورة النجم: ٢٣.

kutub-pdf.net

كان عليه سلف الأمة.

فالمخالف لما بعث الله به رسوله من عبادته وحده، وطاعته وطاعة رسوله، لا يكون متبعًا لدين شرعه الله أبدًا، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾(١).

بل يكون متبعاً لهواه بغير هدى من الله، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾(٢).

وهم في ذلك تارة يكونون على بدعة يسمونها: حقيقة، يقدمونها على ما شرعه الله. وتارة يحتجون بالقدر الكوني على الشريعة، كما أخبر الله به عن المشركين كما تقدم.

ومن هؤلاء طائفة هم أعلامهم عندهم قدرًا، وهم مستمسكون بما اختاروا بهواهم من الدين في أداء الفرائض المشهورة، واجتناب المحرمات المشهورة.

وقوله لمخالف: والشاهد أن الله تعالىٰ أمرهم باتباع الشريعة ونهاهم عن اتباع الأهواء، وليس هناك إلا الشريعة أو اتباع الهوىٰ، فإن لم يستجبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهوائهم، فكل ما خالف الشريعة فهو من الهوىٰ، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾

وقوله بل يكون متبعًا: وهذه الطائفة الرابعة: يؤدون الفرائض وينتهون عن المحارم، لكن يغلطون في ترك الأسباب التي شرعها الله، ويتركون الأسباب الشريعة، سواء كانت الأسباب دينية أو دنيوية وإن كانوا يؤدون الفرائض المشهورة ويجتنبون المحرمات المشهورة، لكن قد يتركون بعض الواجبات غير

---

(١) سورة الجاثية: ١٨ ـ ١٩.

(١٩) سورة الشورىٰ: ٢١.

kutub-pdf.net

لكن يضلون بترك ما أمروا به من الأسباب التي هي عبادة، ظانين أن العارف إذا شهد القدر أعرض عن ذلك، مثل من يجعل التوكل منهم أو الدعاء منهم ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة بناء على أن من شهد القدر علم أن ما قدر سيكون، فلا حاجة إلى ذلك.

وهذا ضلال مبين، وغلط عظيم.

فإن الله قدر الأشياء بأسبابها،.

المشهورة، ولا يتركون بعض المحرمات غير المشهورة، ويتركون ما أمروا به من الأسباب الشرعية، فمثلاً الإنسان مأمور بأن يؤدي الفرائض وأن ينتهي عن المحارم وهذا سبب شرعي في دخول الجنة، وتوحيد الله وإخلاص الدين لله والانتهاء عن المحارم، كذلك الأسباب الدنيوية، فالإنسان يطلب الرزق يبيع ويشتري يحرث ويبذر يزرع وغير ذلك من الأسباب الشرعية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله وصلة الرحم وبر الوالدين والإحسان إلى الأقارب والمماليك والبهائم والجيران إلى غير ذلك من الأسباب الشرعية، هؤلاء قد يتركون بعض الأسباب الشرعية سواء كانت دينية أو دنيوية، وهؤلاء هم الطائفة الرابعة.

وقوله **يضلون**: يزعمون أن من شهد القدر وشهد الإرادة فلا حاجة به إلى فعل الأسباب.

وقوله **فإن الله**: والله تعالى ربط المسببات بأسبابها، سواء كانت دينية أو دنيوية، فربط الله تعالى الآخرة والدنيا كلها بالأسباب، فالجنة مربوطة بالأسباب منها العمل الصالح، والنار مربوطة بالأسباب ومنها العمل السيء، والدنيا مربوطة بالأسباب، فيزرَع الإنسان والزرع مربوطة بالسبب، فالإنسان يبذر ويغرس ويسقي الماء فيحصد، كذلك الجوع لا يزول إلا بالأكل وهذا سبب، والعطش لا يزول إلا بالشرب، والبرد لا يزول إلا بالاستدفاء وهكذا كل شيء مربوطة بالأسباب فالله تعالى ربط المسببات بأسبابها دنيوية وأخروية.

kutub-pdf.net

كما قدر السعادة والشقاوة بأسبابهما، كما قال النبي ﷺ: (إن الله خلق للجنة أهلا، خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وبعمل أهل الجنة يعملون، وخلق للنار أهلاً، خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وبعمل أهل النار يعملون)(١).

وكما قال النبي ﷺ لما أخبرهم: بأن الله كتب المقادير، فقالوا: يا رسول الله! أفلا ندع العمل، ونتكل على الكتاب؟ فقال: (لا، اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة)(٢).

فكل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة.

والتوكل مقرون بالعبادة، كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾(٣).

وفي قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾(٤).

وقول شعيب عليه السلام: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٥).

ومنهم طائفة قد تترك المستحبات من الأعمال دون الواجبات، فتنتقص بقدر ذلك.

وقوله ومنهم طائفة تترك: وهذه الطائفة الخامسة وهي التي تترك المستحبات دون الواجبات، وهؤلاء ما عليهم شيء لأنهم أدوا الواجبات لكن فاتهم وحصل عليهم نقص عظيم، فاتهم الثواب والأجر المترتب على فعل المستحبات، فهؤلاء من حرمانهم فعلوا الواجبات لكن تركوا المستحبات فحرموا أجرها.

---

(١) رواه مسلم [٢٦٦٢].

(٢) رواه البخاري [١٣٦٢]، [٤٩٤٥]، [٤٩٤٦]، رواه مسلم [٢٦٤٧].

(٣) سورة هود: ١٢٣.

(٤) سورة الرعد: ٣٠.

(٥) سورة هود: ٨٨.

kutub-pdf.net

ومنهم طائفة يغترون بما يحصل لهم من خرق عادة، مثل مكاشفة أو استجابة دعوة مخالفة للعادة، ونحو ذلك، فيشتغل أحدهم بهذه الأمور عما أمر به من العبادة والشكر ونحو ذلك.

فهذه الأمور، ونحوها كثيرًا ما تعرض لأهل السلوك والتوجه، وإنما ينجو العبد منها بملازمة أمر الله الذي بعث به رسوله، في كل وقت.

كما قال الزهري:

كان من مضى من سلفنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة.

وذلك أن السنة كما قال مالك رحمه الله مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق[1].

والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد، ولها أصلان: أحدهما: أن لا يعبد إلا الله.

الثاني: أن لا يعبده إلا بما أمر وشرع، لا يعبده بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع.

وقوله ومنهم طائفة: وهذه الطائفة السادسة وهم الذين يشتغلون بما يحصل لهم من خرق العادات عن عبادة الله وشكره، فإذا حصل لأحدهم أن اجيبت دعوته أو كشف له عن شيء أو ما أشبه ذلك اشتغل بذلك عن عبادة الله وشكره.

وقوله فهذه الأمور: هذا هو سبب النجاة؛ ملازمة أمر الله الذي بعث الله به رسله، فإذا أردت النجاة فالزم أمر الله وأمر رسوله، وأخلص العبادة لله، أدِّ الفرائض لله، والزم أمر الله وأمر رسوله، فهذا سبيل النجاة، فالشريعة هي سفينة الرحمن من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق، ومن عمل بالشريعة فقد ركب السفينة، ومن ترك الشريعة لم يركب السفينة فلا شك غرق، إذًا طريق النجاة: لزوم أمر الله وأمر رسوله ﷺ.

وقوله أن العبادة والطاعة: هذا أصلان لابد منهما في العبادة، لا تصح

---

(١) انظر مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ص ١٢٩ .

kutub-pdf.net

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[١].

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٣].

العبادة إلا بهذين الأصلين، الأصل الأول: ألا يعبد إلا الله، وهذا معنى شهادة ألا إله إلا الله، والأصل الثاني: أن يعبد الله بما شرعه وبما أمر به لا بالبدع والأهواء، وهذا هو معنى شهادة أن محمداً رسول الله، فإذا تخلى أحد هذين الأصلين ما صحت العبادة، لا يعبد إلا الله، وأن يعبد الله بما شرع لا بالأهواء والبدع، فالأول هو تحقيق شهادة ألا إله إلا الله، والأصل الثاني هو تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله.

قوله فمن كان يرجو: فالآية فيها الأصلان: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ هذا هو الأصل الثاني، ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ هذا هو الأصل الأول.

قوله بلى من أسلم: إسلام الوجه هو إخلاص الدين لوجه الله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: إحسان العمل وإتقانه وأن يكون العمل موافقًا للشريعة.

قوله ومن أحسن ديناً: فمن أسلم لله، هذا هو الأصل الأول، وهو محسن هذا هو الأصل الثاني.

---

(١) سورة الكهف: آية ١١٠.

(٢) سورة البقرة: ١١٢.

(٣) سورة النساء: ١٢٥.

kutub-pdf.net

فالعمل الصالح: هو الإحسان وهو فعل الحسنات، والحسنات: هي ما أحبه الله ورسوله، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب.

فما كان من البدع في الدين التي ليست في الكتاب، ولا في صحيح السنة، فإنها – وإن قالها من قالها، وعمل بها من عمل – ليست مشروعة، فإن الله لا يحبها ولا رسوله، فلاتكون من الحسنات ولا من العمل الصالح. كما أن من يعمل ما لا يجوز، كالفواحش والظلم ليست من الحسنات ولا من العمل الصالح.

و أما قوله: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١). وقوله: ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾(٢). فهو إخلاص الدين لله وحده.

وكان عمر بن الخطاب يقول: اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(٣). قال: أخلصه وأصوبه.

قالوا: ياأبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟

قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله. والصواب: أن يكون على السنة.

وقوله فالعمل الصالح إلى قوله ولا يشرك: المقصود بها: إخلاص الدين لله وحده.

وقوله وكان عمر: وهذا فيه تحقيق الأصلين؛ اللهم اجعل عملي كله صالحًا هذا الأصل الثاني، واجعله لك خالصًا هذا هو الأصل الأول.

وقوله قال الفضيل: و هذان أيضًا الأصلان: الخالص الأصل الأول، والصواب هو الأصل الثاني.

---

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) النساء: ١٢٥.

(٣) سورة الملك: ٢.

kutub-pdf.net

فإن قيل: فإذا كان جميع ما يحبه الله داخلاً في اسم العبادة فلماذا عطف عليها غيرها؟ كقوله في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقوله لنبيه: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾[(١)]. وقول نوح: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[(٢)] وكذلك قول غيره من الرسل؟.

قيل: هذا له نظائر كما في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[(٣)].

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[(٤)]. وإيتاء ذي القربى: هو من العدل والإحسان، كما أن الفحشاء والبغي من المنكر.

وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾[(٥)]، وإقامة الصلاة من أعظم التمسك بالكتاب.

وكذلك قوله عن أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[(٦)]. ودعاؤهم رغبًا ورهبًا من الخيرات. وأمثال ذلك في القرآن كثير.

وقوله **فإن قيل**: يقول: إذا كان جميع ما يطلبه الله داخلاً في العبادة فلماذا يعطف بعض الواجبات وبعض المستحبات على العبادة كما مر في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، عطف الإسلام على العبادة مع أن الإسلام مبني على العبادة. أجاب المؤلف رحمه الله بأجوبة فقال: إن هذا يجاب عنه، بأنه حينما يعطف عليه فإنماذلك لبيان أهميته، فيكون خصه لبيان أهميته، أو لأنه إذا لم يعطف عليه يكون ليس داخلاً، أما إذا عطف عليه لا يكون داخلاً كالفقير والمسكين، الفقير إذا أفرد دخل فيه المسكين، والمسكين إذا أفرد دخل فيه الفقير، وإذا اجتمعا صار الفقير أشد حاجة.

---

(١) سورة هود: ١٢٣.

(٢) سورة نوح: ٣.

(٣) العنكبوت: ٤٥.

(٤) سورة النحل: ٩٠.

(٥) سورة الأعراف: ١٧٠.

(٦) سورة الأنبياء: ٩٠.

kutub-pdf.net

وهذا الباب: يكون تارة مع كون أحدهما بعض الأخر فيعطف عليه تخصصيا له بالذكر، لكونه مطلوبًا بالمعنى العام، والمعنى الخاص.

وتارة تتنوع دلالة الاسم بحال الانفراد والاقتران، فإذا أفرد عم، وإذا قرن بغيره خص، كاسم: «الفقير» و «المسكين» لما أفرد أحدهما في مثل قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١). وقوله: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ (٢). دخل فيه الآخر.

ولما قرن بينهما في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ (٣). صارا نوعين.

وقد قيل: إن الخاص المعطوف على العام، لا يدخل في العام حال الاقتران، بل يكون من هذا الباب. والتحقيق أن هذا ليس لازمًا.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ (٤).

وقوله وهذا الباب: يعني يكون مطلوب مرتين، مرة بالمعنى العام ومرة بالمعنى الخاص على هذا القول.
وقوله من كان عدواً: فعطفت جبريل وميكال على الملائكة وهم من الملائكة.

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٣.

(٢) سورة المائدة: ٨٩.

(٣) سورة التوبة: ٦٠.

(٤) البقرة: ٩٨.

kutub-pdf.net

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾(١).

وذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة.

تارة لكونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام، كما في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى.

وتارة لكون العام في إطلاق قد لا يفهم منه العموم، كما في قوله: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾(٢)، فقوله: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾. يتناول كل الغيب الذي يجب الإيمان به، لكن فيه إجمال. فليس فيه دلالة على أن من الغيب: ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.

وقد يكون المقصود أنهم يؤمنون بالخبر به، وهو الغيب وبالإخبار بالغيب، وهو ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.

ومن هذا الباب: قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾(٣). وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾(٤).

وتلاوة الكتاب: هي اتباعه والعمل به، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾(٥).

---

* فالتلاوة تنقسم إلى قسمين: تلاوة بمعنى العمل، وتلاوة بمعنى القراءة، والمراد بالآية هنا تلاوته أي اتباعه والعمل به.

---

(١) الأحزاب: ٧.

(٢) البقرة: ٣ - ٤.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٤) سورة الأعراف: ١٧٠.

(٥) سورة البقرة: ١٢١.

kutub-pdf.net

قال: يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويؤمنون بمتشابهه، ويعملون بمحكمه(١).

فاتباع الكتاب: يتناول الصلاة وغيرها، لكن خصها بالذكر لمزيتها.

وكذلك قوله لموسى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾(٢).وإقامة الصلاة لذكره: من أجل عبادته.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾(٣).

وقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾(٤).

وقوله: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾(٥).

فإن هذه الأمور هي أيضًا من تمام تقوى الله. وكذلك قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (٦). فإن التوكل هو الاستعانة، وهي من عبادة الله، لكن خصت بالذكر، ليقصدها المتعبد بخصوصها. فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة، إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعونته.

إذا تبين هذا فكمال المخلوق: في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته.

وقوله قال يحلون حلاله: وهذا شامل لكل مخلوق، فكل مخلوق كماله في العبودية علمًا حقق العبودية كمل عند الله وازداد قربًا منه، وإذا نقصت عبوديته نقص كماله ونقص قربه من الله، وهذا شامل للأنبياء والرسل والملائكة والجن والإنس، كل ما حقق المخلوق العبودية كل ما كان أقرب إلى الله وازداد درجة وعلواً من الله، وإذا ضعف تحقيقه للعبودية بعد من الله ونزلت درجته ومرتبته عند الله.

---

(١) أخرجه بن جرير في (جامع البيان) (٢/ ٥١٩) وعبد الرزاق في تفسيره (١/ ٥٦).

(٢)سورة طه: ١٤.

(٣) سورة الأحزاب: ٧٠.

(٤) سورة المائدة: ٣٥.

(٥) سورة التوبة: ١١٩

(٦) سورة هود: ١٢٣.

kutub-pdf.net

ومن توهم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه أو أن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق، بل من أضلهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾(٢).

وقال تعالى: في المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٣)

وقوله ومن توهم: والشاهد قوله ﴿إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ فكل من في السماوات والأرض يأتي يوم القيامة عبدًا، وما هناك أحد يخلو من عبودية، وقد سرد المؤلف آيات كثيرة ليبين أن ليس هناك أحد يخلو من العبودية وأن الله وصف أكابر المخلوقات بالعبادة.

وقوله في المسيح: وصف عليه السلام بالعبودية ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ﴾ وهو نبي كريم مع ذلك لا يخرج عن العبودية.

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٦ـ٢٨.

(٢) سورة مريم: ٨٨ـ٩٥.

(٣) سورة الزخرف: ٥٩.

kutub-pdf.net

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ⑲ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ⑰② فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم. إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾(٣).

وقوله تعالى وله من في السموات: من عنده هم الملائكة وصفهم الله بالعبادة وأنهم لا يستكبرون عن العبادة.

وقوله لن يستنكف: أي ليس أحد يستنكف عن العبادة لا المسيح ولا الملائكة، فكلهم عباد الله، بل إنهم يعبدون الله وتطمئن نفوسهم إلى ذلك ويرتاحون ويتلذذون بالعبودية لله، ولا يستنكفون عن عبادة الله مع شرفهم وكمالهم. وما شرفوا وما كملوا إلا بتحقيق العبودية لله.

وقوله ومن يستنكف: هذا وعيد لمن استكبر عن عبادة الله بأنه يعذب بالعذاب الأليم.

وقوله وقال ربكم: هذا وعيد للمستكبرين عن عبادة الله بأنهم سيدخلون جهنم داخرين أي أذلة صاغرين.

---

(١) سورة الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠.

(٢) سورة النساء: ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٣) سورة المؤمنون: ٦٠.

kutub-pdf.net

وقال تعالي: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾(٢).

وهذا ونحوه – مما فيه وصف أكابر الخلق بالعبادة، وذم من خرج عن ذلك – متعدد في القرآن، وقد أخبر أنه أرسل جميع الرسل بذلك فقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٣).

وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(٤). وقال تعالى لبني إسرائيل: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾(٥). ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾(٦).

وقوله ومن آياته: والشاهد وصف الملائكة بالعبادة ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة.

وقوله واذكر ربك: والشاهد أمر رسوله بالعبادة ووصف الملائكة بالعبادة.

وقوله وهذا ونحوه: فأرسل الله الرسل تأمر الناس بعبادته وتوحيده وطاعته.

---

(١) سورة فصلت: ٣٧ـ٣٨.

(٢) سورة الأعراف ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٣) سورة الأنبياء: ٢٥.

(٤) سورة النحل: ٣٦.

(٥) سورة العنكبوت: ٥٦.

(٦) سورة البقرة: ٤١.

kutub-pdf.net

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[2]

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾[3].

وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلى عبادة الله: كقول نوح ومن بعده عليهم السلام في سورة الشعراء وغيرها: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[4].

وقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[5]. قال في حق يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[7].

وقال: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[8].

وقوله يا أيها الناس: هذا أمر بالعبادة لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، وفي قوله ﴿ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ أمر للمؤمنين بالعبادة.

وقوله: وما خلقت الجن: وهنا بين الله أنه خلق الجن والإنس لعبادته.

وقوله: قل إني أمرت: وهذا رسول الله أكمل الخلق مأمور بعبادة الله.

وقوله وكل رسول: فكل نبي كان يأمر قومه بعبادة الله وتوحيده.

وقوله كذلك لنصرف عنك: صرف الله السوء عن يوسف بسبب إخلاصه لله عز وجل والشيطان ليس له سلطان على عباد الله المخلصين.

---

(١) البقرة: ٢١.
(٢) الذاريات: ٥٦.
(٣) سورة الزمر: ١١ ـ ١٥.
(٤) سورة المؤمنون: ٢٣.
(٥) سورة ص: ٨٢ـ٨٣.
(٦) سورة يوسف ٢٤.
(٧) سورة الصافات: ١٥٩ ـ ١٦٠.
(٨) سورة النحل: ٩٩ ـ ١٠٠.

kutub-pdf.net

وبالعبودية نعت كل من اصطفى من خلقه كما في قوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[١].

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٢] وقال عن سليمان: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٣] و عن أيوب: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾[٤].

وقال عنه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾[٥]. وقال عن نوح عليهالسلام: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[٦]. وقال عن خاتم رسله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾[٧]. وهو أولى القبلتين، وقد خصه الله

وقوله وبالعبودية: كل من اصطفاه الله من الأنبياء والرسل نعته الله بالعبودية، فلا يخرج عن العبودية، كمانعت إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ونوح ونبينا محمد ﷺ في المقامات العظيمة كلهم نعتهم الله بالعبودية، فلا أحد يخرج عنها.

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾: كل هذا

---

(١) سورة ص: ٤٥ـ ٤٧.

(٢) سورة ص: ١٧.

(٣) سورة ص: ٣٠.

(٤) سورة ص: ٤٤.

(٥) سورة ص: ٤١.

(٦) سورة الإسراء: ٣.

(٧) سورة الإسراء: ١.

kutub-pdf.net

بأن جعل العبادة فيه بـخمسمائة ضعف [١]. وقال:﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾[٢]. وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[٣]. وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾[٤]. وقال: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾[٥]. ومثل هذا كثير متعدد في القرآن.

وصف الله تعالى نبينا داود وسليمان وأيوب ونوحًا بالعبودية له، وهكذا وصف نبينا محمد ﷺ بالعبودية في مقام الإسراء وهو مقام عظيم، ووصف أيضًا نبيه بالعبودية في مقام الدعوة.

وقوله و﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾: فوصف نبيه بالعبودية في وقت الإنزال وقال: (فأوحى إلى عبده ما أوحى). كذلك وصف نبيه بالعبودية في مقام الإيحاء ووصف هنا الأبرار بالعبودية وغير ذلك كثير.

---

(١) رواه البزار في مسنده (٤٢٢) وابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٣٠) والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٢٤٨). انظر العبودية تعليق الشيخ علي حسن عبد الحميد ص ٩٩.

(٢) سورة الجن: آية ١٩.

(٣) سورة البقرة: ٢٣.

(٤) سورة الإنسان: ٦.

(٥) سورة الفرقان: ٦٣.

kutub-pdf.net

خلاصة الباب السابق

وهي أن تفاوت الناس تفاوتًا عظيمًا في باب العبودية لله عز وجل، وهو تفاوتهم في حقيقة الإيمان. ولذلك كانت ربوبية الله تعالىٰ لعباده فيها عموم وخصوص. ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صخرة سوداء في ظلمة الليل. والعبودية هي عبودية القلب فمتىٰ استعبد القلب لشيء كان عبداً له، فإذا كان القلب متعبداً لله فهو عبداً لله، وإذا كان متعبداً لغيره فهو عبداً لغيره. فإن العبودية عبودية قلب ولو كان الجسد مأسوراً أو مسجونا والقلب مرتاح فإنه لا يضره هذا السجن، وإذا كان القلب معبداً لغير الله ولو كان حراً طليقًا فإنه عبد، فالعبودية عبودية القلب كما أن الغنىٰ غنىٰ النفس.

وعبودية العبد لربه تستلزم موافقته لله في محبوباته ومسخوطاته، فولي الله عبد الله علىٰ الحقيقة، وهو الذي يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله ويبغض ما يبغضه الله ويوالي من والىٰ الله ويعادي من يعادي الله ويحب من أحبه الله، ويبغض من أبغضه الله ويعطىٰ لله ويمنع لله، فيكون دينه كله لله. ومحبته لمحبوب الله عز وجل، فمحبة محبوب المحبوب من محبة المحبوب، ولهذا ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح «ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» و«أن يحب المرء لا يحبه إلا لله» هذا من تمام محبة الله عز وجل. والعبد فقير بالذات إلىٰ الله عز وجل من جهتين:

ـ من جهة العبادة، وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلية. ودين الإسلام مبني علىٰ الاستسلام لله وحده، فمن لم يستسلم لله ولم ينقاد له ليس بمسلم، ومن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك، ومن لم

kutub-pdf.net

فصل في التفاضل بالإيمان

إذا تبين ذلك، فمعلوم أن الناس يتفاضلون في هذا الباب تفاضلاً عظيمًا، وهو تفاضلهم في حقيقة الإيمان.

وهم ينقسمون فيه إلى عام وخاص، ولهذا كانت ربوبية الرب لهم فيها عموم وخصوص.

ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش. إن أعطي رضي، وإن منع سخط»[(١)].

يستسلم لله فهو مستكبر، والمشرك والمستكبر كل منهم كافر.

فعلى ذلك يكون الناس ثلاثة أقسام؛ قسم استسلم لله فقط مع إخلاص الدين له عز وجل والإيمان به وبرسوله، فهذا هو المؤمن حقًا.

وقسم استسلم لله في الظاهر لكنه ليس بمؤمن في الباطن وهؤلاء المنافقين. وقسم استسلم لله ولغير الله فهو مشرك، وقسم استكبر على الله ولم يستسلم لله فهو مستكبر مثل فرعون وإبليس ومن على شاكلتهم فهم مستكبرون عن عبادة الله لم يستسلموا، والمنافقين مستسلمون لله في الظاهر لكنهم غير مؤمنين في الباطن فيكونون كفرة. والمشرك والمستسلمون لله والمستسلمون لغير الله مشركون. والمؤمن مستسلم لله وحده فقط ولايستسلم لغيره، وهو مؤمن في الباطن والظاهر. يقول المولف رحمه الله:

وقوله **وإذا تبين ذلك**: أي أنهم في باب العبودية لله يتفاضلون تفاضلاً عظيمًا، وهذا يعني أنهم يتفاضلون في الإيمان بالله ورسوله، وهذا هو تفاضلهم في عبودية الله.

وقوله **وهم ينقسمون**: لكون قلبه متعبد لهذه الأشياء، لكونه يسخط من أجل الدرهم ويرضى من أجل الدرهم. والقطيفة والخميصة أنواع من الأقمشة

---

(١) رواه البخاري: ٦٤٣٥ عن أبي هريرة.

kutub-pdf.net

فسماه النبي ﷺ: عبد الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر ما فيه دعاء وخبرًا.

وهو قوله: «تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»

والنقش هو إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش: ما يخرج به الشوكة.

وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه، ولم يفلح لكونه تعس وانتكس. فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال.

وقد وصف ذلك بأنه إذا أعطي رضي، وإذا منع سخط. كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[1] فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله.

وهكذا حال من كان متعلقًا برئاسة أو بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط. فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة: هي رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فالقلب عبده.

ولهذا يقال:

العبد حــر ما قنع

والحر عبد ما طمع

ما لها خمل وزرع من البسط، والمعنى أنه متعبد لهذه الأشياء؛ صار قلبه متعبد لكون يرضى لها ويغضب لها ويسخط من أجلها، ولهذا قال: «وإن أعطي رضي وإن منع سخط».

وقوله وقد وصف: هذا في المنافقين، أي أن عبد الدينار وعبد الدرهم قد شابه المنافقين في كونه يغضب من أجل الدنيا، ويرضى من أجل الدنيا.

وقوله وهكذا حال: لأن العبودية عبودية القلب، فالعبد المملوك لسيده حر ما دام قانعًا، وهذا يشمل المملوك وغير المملوك فما دام قنوعًا راضيًا بما قسمه

---

(١) سورة التوبة: ٥٨.

kutub-pdf.net

وقال القائل:

أطعتُ مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرًا

ويقال: الطمع غُل في العنق، وقيد في الرجل، فإذا زال الغل من العنق: زال القيد من الرجل.

ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: الطمع فقر، واليأس غنى، وإن

الله له فإنه حر حتى ولو كان مسترقاً. والحر لو كان حرًا طليقًا يتصرف فهو عبدٌ ما طمع، فإذا طمع فهو عبد، فما دام المرء في قلبه الطمع فهو عبد ولو كان حرًا طليقًا، والعبد حرٌ ولو كان مقيدا، لأن العبودية عبودية القلب، والحرية هي حرية القلب في الحقيقة، وهذا الشيء يجده الإنسان واقعًا مشاهدًا، تجد بعض الناس الآن ليس بمستريح، عنده أموال كثيرة لكن قلبه غير مستريح، تجده مشغولاً في ليله ونهاره وفي يقظته وفي منامه مشغول بجمع المال، يجمعه من حلال وحرام ولا يبالي، وتجده لا يستريح بين أولاده ولا في أكله ولا في شربه لأن قلبه مسترق للمال، وبعض الناس جعل الله غناه في قلبه وأعطاه القناعة، فتجده مستريحًا ولو كان ماله قليلاً.

وقوله قال القائل: هكذا الطمع غُل بضم الغين، وهو ما يكون في العنق، أما الغِل بكسر الغين فهو الحسد والحقد الذي يكون في الصدر، قال تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾، فهذا يختلف منه المعنى بالضم والكسر، إذ كسرت الغين صار المراد به الغل الذي في الصدر، وإذا ضممت الغين غُل صار القيد الذي يكون في الرقبة، قال تعالى: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ فالأغلال هنا جمع غُل، ﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا﴾ والأغلال هي القيود التي يجرون بها في أعناقهم، يسحبون

kutub-pdf.net

أحدكم إذا يئسى من شيء استغنى عنه.

وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه، فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه، ولا يطمع فيه، ولا يبقى قلبه فقيرًا إليه، ولا إلى من يفعله.

وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه، فإن قلبه يتعلق به، فيصير فقيرًا إلى حصوله وإلى من يظن أنه سبب في حصوله، وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك.

قال الله عز وجل: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(١)].

فالعبد لا بد له من رزق، وهومحتاج إلى ذلك.

فإذا طلب رزقه من الله صار عبدًا لله، فقيرًا إليه.

وإذا طلبه من مخلوق صار عبدًا لذلك المخلوق فقيرًا إليه.

ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل، وإنما أبيحت للضرورة.

في الحميم ثم في النار يسجرون، المقصود أن الغُل بضم الغين هو الغل الحسي وهو الوثاق الذي يكون في الرقبة، من حبل وغيره، أما الغِل بكسر الغين فهو الحقد الذي يكون في الصدر وفي القلب.

وقوله وهذا أمر: وما ذاك إلا لأن مسألة المخلوق فيها ميل الإنسان بقلبه إلى المخلوق ويحتاج إليه فيكون قلبه متعبد لذلك المخلوق، فصارت مسألة المخلوق لا تجوز إلا للضرورة، ولهذا جاء في الحديث المنع من سؤال الناس المال، وأن من سأل الناس تكثرًا فإنما يسأل جمرًا، ومن سأل الناس جاءت مسألته كودشًا في وجهه يوم القيامة، وفي الحديث الآخر: لا يزال الرجل يسأل حتى يأتي يوم القيامة وهو ليس في وجهه مزعة لحم، وفي حديث قبيس الذي قال إن النبي ﷺ

---

(١) سورة العنكبوت: ١٧.

kutub-pdf.net

وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في «الصحاح» و«السنن» و«المسانيد».

كقوله ﷺ : «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة من لحم»[(١)].

وقوله : «من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً - أو خموشاً - أو كدوشاً - في وجهه» [(٢)].

وقوله : «لا تحل المسألة إلا لذي غرم مفظع، أودم موجع، أو فقر مدقع»[(٣)].

قال : «لا تحل المسألة إلا لثلاثة : رجل تحمل حمالة فيسأل حتىٰ يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فيسأل حتىٰ يصيب قوادًا من عيشه و سدادًا من عيشه ثم يمسك ، ورجلاً أصابته فاقة يعني فقرًا شديدًا حتىٰ يقوم ثلاثة من ذي الحجا يعني من قومه من ذوي العقول لقد أصابت فلاناً فاقة فيسأل حتىٰ يصيب قِوامًا أو قال سدادًا من عيش ، ثم قال : وما سوىٰ ذلك فهو سحت يأكلها صاحبها سحتاً ، وكذلك سؤال الناس غير المال ، الأولىٰ ألا تسأل كما سيبين المؤلف رحمه الله ، والنبي ﷺ بايع بعض الصحابة علىٰ ألا يسألوا الناس شيئًا مطلقًا ، فكان الواحد منهم إذا سقط سوطه وهو علىٰ دابته ينزل ويأخذ السوط ولا يقول يا فلان ناولني إياه حتىٰ كي لا يحتاج إلىٰ أحد ، ولكن تجد بعض الناس إذا كان كبير السن يتعب من بجواره يقول ائت لي بكذا ، اعطني كذا ، ما ينبغي أن يكثر الإنسان من الأسئلة ، كل ما أمكن الإنسان الاستغناء عن الناس فهو أولىٰ .

---

(١) رواه البخاري (١٤٧٤) ومسلم (١٠٤٠).

(٢) رواه أبو داود (١٦٢٦) والنسائي (٥/ ٩٧) والترمذي (٦٥٠).

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٠٠/ ١١٤/ ١٢٦) وأبو داود (١٦٤١).

kutub-pdf.net

وهذا المعنى في «الصحيح» وفيه أيضًا: (لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب، خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه)[١].

وقال : (ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل، ولا مستشرف فخذه، ومالا، فلا تتبعه نفسك)[٢]

فكره أخذه مع سؤال اللسان، واستشراف القلب.

وقال في الحديث الصحيح: «من يستغن يغنه الله. ومن يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر

وقوله لا تحل المسألة: أي الذي يحل له السؤال ، إما في غرم، يعني يتحمل حمالة في ذمته يصلح بين قبيلتين أو بين قريتين أو بين شخصين أو بين زوجين ويتحمل في ذمته أموالاً يعطي هؤلاء عشرة آلاف وهؤلاء عشرة آلاف وهؤلاء الفاً، مثلاً فهذا يسأل حتى يُحَصِّل هذا الشيء الذي تحمّله، حتى ولو كان غنياً إذا تحمل في ذمته ديونًا من أجل الإصلاح بين الناس يُعطى حتى من الزكاة لأنه من الغارمين تقديراً له على هذا العمل النبيل إذا أصلح بين شخصين أو بين قبلتين أو بين زوجين وتحمل في ذمته ديونًا فيعطى من الزكاة ما يسدد هذه الديون تشجيعًا له على هذا العمل النبيل، وهذا يسمى ذو غرم - أي غرامة - ، أو دم موجع أي أصاب دمًا مثلاً بسبب قتل - مُن المعلوم أن القتل الخطأ الدية فيه تكون على العاقلة، لكن نقدر أن لا يكون له عاقله أو يكون القتل مثلاً عمداً أو شبه عمد مثلاً وعفى عنه فالمقصود أنه إذا كان صاحب دم فإنه يسأل حتى يسدد هذا الدين الذي عليه، والثالث، الفقر المدقع أي الشديد، فيسأل بمقدار حاجته فإذا وجد ما يسدد حاجته وحاجة أولاده يمسك).

---

(١) رواه البخاري (١٤٧١).

(٢) رواه البخاري (١٣/ ١٥٣).

kutub-pdf.net

يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر)[١].

وأوصى خواص أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئًا. وفي «المسند»[٢]: (أن أبا بكر كان يسقط السوط من يده، فلا يقول لأحد ناولني إياه، ويقول: إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئًا).

وفي صحيح مسلم [٣] وغيره، عن عوف بن مالك أن النبي ﷺ بايعه في طائفة، وأسر إليهم كلمة خفية: أن لا يسألوا الناس شيئًا.

فكان بعض أولئك النفر يسقط السوط من يد أحدهم ولا يقول لأحد: ناولني إياه.

وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق، والنهي عن مسألة المخلوق في غير موضع.

كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[٤].

وقول النبي ﷺ لابن عباس: (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)[٥].

وقوله ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ : والشاهد ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾، يعني ارغب إلى الله في السؤال، ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾وتقديم الجار بالمجرور يفيد الحصر، يعني ارغب إلى الله ولا ترغب إلى غيره والمعنى اسأل الله ولا تسأل غيره، أي ارغب إلى الله في المسألة).

وقوله: وقول النبي لابن عباس: إذا سألت فاسأل الله والمعنى لا تسأل المخلوق.

---

(١) رواه البخاري[١٤٦٩] ومسلم [١٠٥٣].

(٢) المسند رقم ٦٥ قال العلامة أحمد شاكر ضعيف لانقطاعه.

(٣) صحيح مسلم رقم [١٠٤٣] ورواه أبو داود [١٦٢٦].

(٤) سورة الانشراح: آية ٧ ـ ٨.

(٥) رواه أحمد [١/ ٢٩٣/ ٣٠٧] والترمذي [٢٥١٦].

kutub-pdf.net

ومنه قول الخليل: ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾[(١)] ولم يقل : فابتغوا الرزق عند الله، لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر، كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله. وقد قال تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[(٢)].

والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه، ودفع ما يضره.

وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله، فلا يسأل رزقه إلا من الله، ولا يشتكي إلا إليه، كما قال يعقوب عليه السلام ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾[(٣)].

والله تعالى ذكر في القرآن الهجر الجميل ، والصفح الجميل، والصبر الجميل.

وقد قيل: إن الهجر الجميل: هو هجر بلا أذى.

والصفح الجميل: صفح بلا معاتبة.

والصبر الجميل: صبر بغير شكوى إلى المخلوق.

ولهذا قرئ على أحمد بن حنبل في مرضه: إن طاوسًا كان يكره أنين المريض ويقول: إنه شكوى. فما أنّ أحمد حتى مات[(٤)].

وقوله ومنه قول الخليل : وهذا يدل على ورع السلف الصالح رحمهم الله ولا سيما الإمام أحمد فإنه لما مرض رحمه الله كان يئن من شدة المرض والآنين معروف فقرئ عليه أن طاووس بن كيسان اليماني من التابعين كان يكره أنين المريض ويقول إنه يكتب على الإنسان لأنه شكوى من الخالق إلى المخلوق فتصبر رحمه الله وسكت عن الأنين وقطع الأنين) .

---

(١) سورة العنكبوت : ١٧ .

(٢) سورة النساء : ٣٢ .

(٣) سورة يوسف : آية ٨٦ .

(٤) سيد أعلام النبلاء [١١/ ٢١٥].

kutub-pdf.net

و أما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي الصبر الجميل، فإن يعقوب عليه السلام قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. وقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[1].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في الفجر بسورة يونس، ويوسف، والنحل، فمر بهذه الآية في قراءته فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف.

وقوله وأما الشكوى: فالشكوى إلى الخالق والمشتكى إلى الله، فالله منه المشتكى وإليه المشتكى، فالشكوى إلى الخالق لا تنافي، ولكن الممنوع الشكوى إلى المخلوق إلا إذا كان هناك حاجة لأن تبين كأنه تُسئل فتخبر أن حالته كذا وكذا وذلك من باب الإضمار أو عند الطبيب إذا أراد أن يتعالج الإنسان يقول أحسّ بكذا وكذا أو من باب الأخبار لأهله وأولاده حينما يسألون لا من باب الشكوى، أما الشكوى فلا تجوز، والشكوى إلى الخالق فهذه لاتسمى شكوى جزع ولهذا قال الله عن يعقوب (فصبر جميل، ثم قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، فدل على أن شكواه إلى الله لا تنافي الصبر الجميل).

وقوله كان عمر: كان عمر رضي الله عنه يقرأ بالسور الطوال كلها كسورة يونس ويوسف والنحل، ولما طعن كان يقرأ بهذه السور الطوال رضي الله عنه حتى يجتمع الناس، خصوصاً في الركعة الأولى لأن صلاة الفجر مشروع فيها تطويل القراءة، ولأن الناس بعد اليقظة من النوم بحاجة إلى سماع كلام الله وتدبره فكان يقرأ بهذه السور الطوال وكان يمر بهذه الآية ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فيبكي حتى يُسمع نشيجه من آخر الصفوف، فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف).

---

(١) سورة يوسف : آية ٨٣.

ومن دعاء موسى(١) (اللهم لك الحمد وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك).

وفي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الرحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي. اللهم إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة: أن ينزل بي سخطك، أو يحل علي غضبك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله).

وفي بعض الروايات: (ولا حول ولا قوة إلا بك)(٢).

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته، ورجاؤه لقضاء حاجته ودفع ضرورته، قويت عبوديته له، وحريته مما سواه فكما آن طعمه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

وقوله ومن دعاء موسى : الشاهد وإليك المشتكىٰ ، فالشكوىٰ إلىٰ الله لاتنافي الصبر .

وقوله وفي الدعاء : والشاهد أن النبي ﷺ اشتكىٰ إلىٰ الله ، ولا ينافي ذلك الصبر (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، فالشكوىٰ إلىٰ الله لا تنافي الصبر) .

وقوله وكلما : والمعنىٰ أنك إذا استغنيت عن شخص صرت نظيراً له ونديد أنت وإياه سواء ما يحتاج إليك وأنت وإياه سواء ما يحتاج إليك ولا تحتاج إليه

---

(١) قال الشيخ علي حسن في تعليقه علي العبودية لعله من الروايات الاسرائلية انظر العبودية بتحقيق علي حسن ص ١١٢ .

(٢) رواه بن اسحاق في السيرة [٢/ ٧٠ تهذيبها] مرسلاً ومن طريقه الطبري في تاريخه [٢/ ٣٤٤] انظر التفصيل في العبودية تحقيق علي حسن ص ١١٣ .

kutub-pdf.net

فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له.

وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمدًا إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه، كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم، ممن هو قد مات أو يموت قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾(١).

وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه، أو أن يهدوه، خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميرًا لهم مدبرًا لأمورهم، متصرفا بهم. فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر.

فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة - ولو كانت مباحة له - يبقى قلبه أسيرًا لها تتحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها أو مالكها، ولكنه في الحقيقة هو أسيرها

لأنك مستغن عنه وهو مستغن عنك، واستغن عن من شئت تكن نظيره يعني مثيلاً له، وأفضل على من شئت تكن أميره، إذا أعطيت أحدًا شيئًا فأنت أمير عليه وهو عبد لك لأنك أنت الذي تفضلت وأنت الذي أعطيت، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، إذا احتجت إلى شخص فأنت أسير وعبد له لأنك محتاج إليه تعلق قلبك به، فالشخص الذي تستغن عنه نظير لك ومثيل لك، والشخص الذي يحتاج إليك أنت أمير عليه، والشخص الذي تحتاج إليه أنت أسير له.

وقوله **فكذلك طمع**: لأن العبرة بالحاجة فإذا احتاج إلى أحد تعلق قلبه به وإذا استغنى عنه لم يتعلق قلبه به، فإذا علّق الإنسان قلبه بالله وأنزل حوائجه بالله صار قلبه عبدًا لله وإذا أنزل حوائجه بالمخلوقين صار عبدًا لهم.

---

(١) سورة الفرقان آية ٥٨.

kutub-pdf.net

ومملوكها.

ولا سيما إذا علمت بفقره إليها وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها، فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور، الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن.

فإن من استعبد بدنه واسترق وأسر لا يبالي ما دام قلبه مستريحًا من ذلك مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص.

وأما إذا كان القلب - الذي هو ملك الجسم - رقيقًا مستعبدًا، متيماً لغير الله، فهذا هو الذل والأسر المحض، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب.

وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك، إذا كان قائمًا بما يقدر عليه من الواجبات.

وقوله فالرجل إذا تعلق: وهذا واقع فإذاتعلق رجل بامرأة ولو كانت زوجته مثلاً تجده هو الزوج في الظاهر وهو الولي في الظاهر وهو صاحب البيت وصاحب النفقة لكن هي التي تدبره في كل شيء، ولا يقدر أن يتخلى لأن قلبه متعبد لها من شدة المحبة والتعلق.

وقوله ومن استعبد: لأن المحبوس من حبس قلبه عن الله، فما دام قلب المرء حرًا مرتاحًا فلا يضره ما يصيبه جسده لأن العبرة بالحرية والعبودية والراحة بالقلب.

وقوله وعبودية القلب: يعني أن العبرة بعبودية القلب، فإذا كان الإنسان مأسوراً في بلاد الكفار وقلبه مستريح فلا يضره ذلك فهو يعبد الله ويؤدي الواجبات التي يقدر عليها ولا يضره ذلك، حتى ولو أكره على التكلم بالكفر وتكلم وقلبه مطمئن بالإيمان فإنه لا يضره ذلك، لكن المصيبة عبودية القلب، فإذا تعبد لغير الله فهذا الذي يضره ولو كان جسمه حراً طليقًا.

kutub-pdf.net

ومن استعبد بحق، إذا أدى حق الله وحق مواليه فله أجران (١)، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك.

وأما من استعبد قلبه فصار عبدًا لغير الله، فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملك الناس.

فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس. قال النبي ﷺ: (ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس) (٢).

وقوله ليس الغنى غنى كثرة: والعرض الأثاث والأموال والمتعة ومعنى الحديث أنه ليس الغنى في كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس، فبعض الناس عنده أموال طائلة وأثاث وأمتعة وشركات ومؤسسات لكن قلبه فقير لا يشبع، تجد قلبه دائمًا متعلق بالدنيا، دائمًا قلبه لا يستريح ولا يطمئن، لا في نومه ولا في أكله ولا شربه ولا في جلوسه مع أهله، لأن قلبه فقير وإن كان عند أموال كثيرة، وبعض الناس ماله قليل قدر ما يكفيه، عنده الكفاف وقلبه مستريح مطمئن، لما جعل الله في قلبه من القناعة والراحة والطمائنينة، تجده مرتاحًا في بيته ومع أهله ومع أولاده ومع أقاربه ومع والديه وأرحامه الذي يصلهم فهو مستريح البال.

---

(١) كما صح عن النبي ﷺ فيما رواه البخاري [٩٧] ومسلم [١٥٤] والنسائي [٦/ ١١٥] (ثلاثة يؤتون أجورهم مرتين: رجل كانت له أمة فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتنت وجها، ومملوك أعطى حق ربه عز وجل، وحق مواليه، ورجل آمن بكتابه وبمحمد ﷺ).

(٢) أخرجه البخاري [٦٤٤٦] ومسلم [١٠٥١] عن أبي هريرة.

kutub-pdf.net

وهذا لعمرو الله إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة.

فأما من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبي، فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب.

وهؤلاء عشاق الصور، من أعظم الناس عذابًا وأقلهم ثوابًا، فإن العاشق لصورة، إذا بقي قلبه متعلقًا بها، مستعبدًا لها، اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد.

ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها. بلا فعل الفاحشة، أشد ضررًا عليه ممن يفعل ذنبًا ثم يتوب منه، ويزول أثره من قلبه. وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين، كما قيل:

سُكْرانِ سكرُ هوىً وسُكْرُ مُدامةِ ومتى إفاقةُ مَنْ به سُكْرانِ؟

وقوله وهذا لعمرو: (وهذا لعمري إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة) وليس المراد بهذا هنا القسم وإنما المراد تأكيد الكلام، وجاء مثل هذا في كلام شيخ الإسلام، وكلام ابن القيم، بل جاء في كلام عائشة رضي الله عنها كما ثبت في صحيح البخاري في تفسير سورة يوسف أن عائشة قالت: لعمري، بل جاء في حديث في سنن ابن ماجه أن المراد بهذا تأكيد الكلام، وأما قوله تعالىٰ (لعمرك إنهم في سكرتهم يعمهون) فهذا قسم من الله بحياة النبي ﷺ، والله تعالىٰ له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

وقوله سكران سكر: يعني نوعان من السكر، السكر الأول: سكر الهوىٰ والميل إلىٰ غير الله كالذي يميل إلىٰ عشق امرأة أو غيرها، فهذا سكر، والثاني: الدوام وتعلق القلب بها، يقول سكرانه، سكر هوىٰ وسكر مدامة، ومتىٰ إفاقة من به سكران، شارب الخمر يسكر سكرًا واحدًا ويفيق إذا ذهبت شربة الخمر، لكن من به سكران متىٰ يفيق، والسكر الأول سكر الهوىٰ وهوالميل مستمر، والثاني: التعلق المستمر الذي لا ينقطع، وهذا لا يفيق أبدًا.

kutub-pdf.net

وقيل:

قالوا جُنِنتَ بِمَنْ تَهْوى؟ فَقُلتُ لهم:

العِشْقُ أعظمُ مما بالمجانين.

العشق لا يستفيقُ الدهرَ صاحبهُ وإنما يصرع المجنون في حين.

– ومن أعظم أسباب هذا البلاء: إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له، لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا ألذ ولا أمتع ولا أطيب.

والإنسان لا يترك محبوبًا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفًا من مكروه.

فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر.

قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾(١).

وقوله: قالوا جنت: فهذا القائل، يقول العشق أشد من الجنون، لأن العاشق لا يفيق الدهر كله، بل قلبه متعلق بمعشوقه. أما المجنون فإن كان يصرع بعض الأحيان فهو يفيق بعض الأحيان. ولكن العاشق لا يستفيق أبدا، سكره مستمر، نسأل الله العافية، ولهذا قال: (العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في حينه)، أي بعض الأحيان.

وقوله فالحب الفاسد: يبين المؤلف رحمه الله أن الحب الفاسد يخرج عن القلب وينصرف بالحب الصالح أو الخوف من الضرر، كذلك اليقين الفاسد الذي في القلب، إنما يخرج باليقين الصالح، فاليقين الصحيح هو الذي يخرج

---

(١): سورة يوسف: آية ٢٤.

kutub-pdf.net

فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله.

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له، بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه، انقهر له هواه بلا علاج.

قال تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾[1]. فإن الصلاة فيها دفع مكروه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل محبوب، وهو ذكر الله.

وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه، فإن ذكر الله، عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع.

اليقين الفاسد، فإذا كان عنده يقين منحرف بأن اعتقد اعتقاداً غير صحيح أي غير موافق لشرع الله فهذا يزول بالاعتقاد الصحيح، فيخرج هذا اليقين الفاسد إذا خلفه يقين صالح، يقين موافق لشرع الله، متيقين بأنه ملاقي الله، متيقن بيوم القيامة، ومتيقن بالآخرة عنده يقين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، هذا اليقين الصادق الصحيح هو الذي يخرج اليقين الفاسد، بعض الناس عنده يقين فاسد قد يعتقد أن الطواف بالقبور والذبح للأولياء والصالحين ودعاءهم من دون الله ليس بشرك فهذا يقينه فاسد ويخرج هذا إذا تيقن يقيناً صحيحًا بأن هذا هو الشرك وأن هذا دعاء لغير الله فإذا تيقن هذا صار هذا يقيناً صحيحًا عرف الشك من التوحيد فخرج اليقين الفاسد، لكن بعض الناس يطوف حول القبور، ويقول هذا ليس عبادة إنما هو محبة للصالحين هذا توسل، فهذا الاعتقاد يقين فاسد، إنا يزول باليقين الصادق. كذلك الحب الفاسد إنما ينصرف عن القلب بالحب الصالح، واليقين الفاسد ينقلب عن القلب بالاعتقاد

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٢٤.

والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنها تفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل.

ولهذا قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[2]. وقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[4] فجعل سبحانه غض البصر، وحفظ الفرج، هو أقوى تزكية للنفس، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور: من الفواحش والظلم، والشرك، والكذب وغير ذلك. وكذلك طالب الرئاسة والعلو

الصحيح، لكن الاعتقاد الصحيح الموافق لما في كتاب الله وسنة رسوله ولما يعتقده السلف الصالح من أن الدعاء لغير الله شرك، والذبح لغير الله شرك والطواف حول القبور للتقرب إليهم شرك، هذا اعتقاد صحيح يخرج اليقين الفاسد الذي يعتقده عباد القبور من أن هذا ليس شركًا وإنما هو وسيلة ومحبة للصالحين.

وقوله إن الصلاة: الصلاة فيها ذكر الله عز وجل، فالحكمة في تشريعها هو ذكر الله وعبودية القلب لله، وأما الفحشاء والمنكر فهذا شيء تنهى عنه الصلاة لأنه شيء دخيل ومكروه فهو يزال حتى يخلص الشيء المقصود وهو ذكر الله وعبادة الله بالقلب واللسان والجوارح.

---

(١) سورة الشمس : آية ٩ ـ ١٠.

(٢) سورة الأعلى : آية ١٤ ـ ١٥.

(٣) سورة النور : آية ٣٠.

(٤) سورة النور : ٢١.

kutub-pdf.net

في الأرض، قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيذل لهم الأموال والولايات، ويعفو عما يجترحونه ليطيعوه ويعينوه، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم.

والتحقيق أن كلاهما فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله. وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق، كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق، فكل واحد من الشخصين - لهواه الذي استعبده واسترقه - مستعبد للآخر.

وهكذا أيضًا طالب المال، فإن ذلك المال يستعبده ويسترقه.

وهذه الأمور نوعان:

منها ما يحتاج العبد إليه، من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه، ونحو ذلك. فهذا يطلبه من الله، ويرغب إليه فيه فيكون المال عنده - يستعمله في حاجته - بمنزلة حماره الذي يركبه،

وقوله منها ما يحتاج العبد: والمعنى أن الإنسان في أمور دنياه لا بد له من شيء يقوم بحاجته من طعام وشراب ومسكن وملبس ومنكح، وهذا الشيء الضروري الذي لا بد منه، وهناك شيء زائد عن حاجته، فأمور الدنيا تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: يحتاجه الإنسان ولا بد له منه، فمثلاً لا بد له من أكل وشرب، ومسكن، ولا بد له من مركب، وزوجة، فهذه أمور ضرورية. يقول المؤلف رحمه الله: هذه الأمور الضرورية يطلبها من الله، ثم إذا حصلت عنده تكون وسيلة وليست غاية بمنزلة الحمار الذي يركبه يعني بمنزلة السيارة التي تركبها وبمنزلة البساط الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف والحمام الذي يقضي فيه حاجته وينصرف عنه، وكذلك الآن السيارة فهي وسيلة وليست بغاية، فالسيارة هي المركب الآن، فبعض الناس تجد عنده عناية شديده بالمركب تغسيل ليلاً ونهاراً وصباحًا ومساءً وهذا معناه جعل الوسيلة غاية، فصارت هي

kutub-pdf.net

وبساطه الذي يجلس عليه. بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته، من غير أن يستعبده، فيكون هلوعًا ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[(١)].

ومنها: ما لا يحتاج العبد إليه فهذا لا ينبغي له أن يعلق قلبه به. فإذا علق قلبه به صار مستعبدًا له. وربما صار معتمدًا على غير الله، فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ : «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة»(٢) وهذا هو عبد هذه الأمور، فإنه لو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياها رضي، وإذا منعه إياها سخط. وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله،ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله تعالى. وهذا هو الذي استكمل الإيمان، كما في الحديث: (من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان)[(٢)]. وقال: (أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله)[(٣)].

همه، مع أنها وسيلة تنقلك إلى ما تريد فقط، أما أن تجعلها هي الغاية وهي شغلك الشاغل، فمعناه أنها أصبحت وسيلة غاية.

والقسم الثاني: ما زاد عن حاجة الإنسان فهذا لا ينبغي للإنسان أن يعلق قلبه به، فإذا علق قلبه صار عبداً له.

وقوله وإنما عبد الله: هذا عبد الله على الحقيقة، فهو الذي يُرضيه ما يُرضي الله ويسخطه ما يُسخط الله ويحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله، هذا هو الذي استكمل الإيمان، والمعنى أنه وافق الله في محبوباته ومكروهاته.

---

(١) سورة المعارج: آية ٢١.

(٢) سبق تخريجه

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير [١٠٣٥٧] عن ابن مسعود.

kutub-pdf.net

وفي الصحيح عنه ﷺ «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»(١).

فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه. فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأحب المخلوق لله، لا لغرض آخر. فكان هذا من تمام حبه لله، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب، فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق، لا لشيء آخر، فقد أحبهم لله لا لغيره. وقد قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٢).

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(٣). فإن الرسول لا

وقوله فإنه محبة المحبوب: هي من تمام محبة المحبوب فالله تعالىٰ يحب الأنبياء والملائكة والصالحين فإذا أحببتهم فهذا من تمام محبة الله، ومن تمام موافقة الله والله تعالىٰ يبغض الكفار ويبغض الفاسقين فأنت إذا أبغضتهم فقد وافقت ربك فيما يغضبه.

وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾: وهذه الآية تسمىٰ آية المحنة عند العلماء وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، فقد ادعىٰ قوم محبة الله فامتحنهم الله بهذه الآية، والمعنىٰ: إن كنتم صادقين في محبة الله فاتبعوا الرسول، فمن كان يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام فهو صادق في محبته لله، ومن كان لا يتبع الرسول ﷺ فهو كاذب في محبته له، ولا تقبل

---

(١) رواه البخاري [١١٦، ٢٢١/ ٦١١] ومسلم [٤٣].

(٢) سورة المائدة: آية ٥٤.

(٣) سورة آل عمران: آية ٣١.

kutub-pdf.net

يأمر إلا بما يحب الله، ولا ينهى إلا عما يبغضه الله، ولا يفعل إلا ما يحبه الله، ولا يخبر إلا بما يحب الله التصديق به.

فمن كان محبًا لله، لزم أن يتبع الرسول، فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسى به فيما فعل، ومن فعل هذا، فقد فعل ما يحبه الله، فيحبه الله.

وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله.

وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان، والعمل الصالح، وفي دفع ما يبغضه الله: من الكفر، والفسوق، والعصيان وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[1]. فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من الله

دعواه، وهذا دليل وبرهان على محبة الله، فدليل محبة الله اتباع الرسل، فإذا رأينا الرجل يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام عرفنا أن محبته صادقة، وإذا رأيناه يخالف الرسول ﷺ عرفنا أن محبته كاذبة، وهناك علامة أخرى وهي الجهاد في سبيل الله كما سيأتي، فهذان علامتان لمحبة الله؛ الأولى اتباع الرسول والثانية الجهاد في سبيل الله.

وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي انتظروا ماذا يحل بكم من عقوبة، توعّد مَن قدم واحداً من هذه الأمور الثمانية آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وتجارة، ثمانية أشياء من قدم واحدة منها على محبة الله ورسوله فعليه الوعيد الشديد).

---

(١) سورة التوبة : آية ٢٤ .

ورسوله، والجهاد في سبيله بهذا الوعيد الشديد.

بل قد ثبت عنه ﷺ في «الصحيح» أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(١). وفي الصحيح: أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك «فقال: فو الله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال: «الآن يا عمر»(٢).

فحقيقة المحبة لاتتم إلا بموالاة المحبوب، وهو موافقته في حب ما يحب، وبغض ما يبغض.

والله يحب الإيمان والتقوى، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان.

ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرداة جازمة في حصول المحبوبات، فإذا كان العبد قادرًا عليها حصلها، وإن كان عاجزًا عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك، كان له أجر كأجر

وقول الآن يا محمد: أي الآن بلغت المحبة الواجبة والمطلوبة.

وقوله: فحقيقة المحبة: لاتتم إلا بموالاة المحبوب، فمن ادعىٰ أنه يحب الله فلا بد أن يوالي الله، وموالاة الله معناها موافقة الله في حب ما يحب وبغض ما يبغض، فانظر إلىٰ الشيء الذي يحبه الله فأحبه من شخص أو فعل أو حكم، وانظر إلىٰ ما يبغضه الله من شخص أو فعل أو حكم فأبغضه، فالله تعالىٰ يحب الصلاة والزكاة والصوم، وهذه من الأحكام، ويحب المؤمنين والأنبياء والصالحين ونحبهم، والله تعالىٰ ينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والزنا والسرقة، ويبغض الكافرين والفاسقين فتبغضهم وهكذا، هذا الصادق في محبته.

---

(١) رواه البخاري [١٥] ومسلم [٤٤] عن أنس.

(٢) رواه البخاري [٦٦٣٢].

kutub-pdf.net

الفاعل. كما قال النبي ﷺ : «من دعاى إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

وقال: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» . قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[(١)].

وقوله إن بالمدينة: وهذا في غزوة تبوك، ذلك لما كان بالمدينة رجالاً تخلفوا للعجز وعدم الاستطاعة فكتب الله لهم أجر المجاهدين، وهم في المدينة، والمعنى أن المحبة إذا كانت تامة تستلزم الإرادة القوية، تدفعك إلى العمل إن كنت قادراً، وإن كنت عاجزاً ولا تستطيع كتب الله لك أجر العامل، مثل المجاهدين الذين تخلفوا عن المجاهدة لعدم الاستطاعة إما مريضاً أو أعمى أو أعرجَ أو ما عنده مال، ولهذا أخبر الله تعالى أن أناس جاؤا للنبي ﷺ يطلبون أن يعطيهم شيئًا من الإبل حتى يركبوا عليها للجهاد، والرسول ﷺ ما عنده شيء فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع من البكاء يريدون أن يشاركوا المجاهدين لكن لا يستطيعوا وليس عندهم شيء والرسول ﷺ ما عنده شيء يعطيهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾ . (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم)، يطلبون يقولون يا رسول الله أحملنا على إبل، وليس عنده شيء، (قل لا أجد ما أحملكم عليه تولوا) يعني رجعوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) ما عليهم جناح (إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم اغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف

---

(١) رواه البخاري [٤٤٢٣] ومسلم [١٩١١] عن جابر.

kutub-pdf.net

والجهاد : هو بذل الوسع – وهو كل ما يملك من القدرة – في حصول محبوب الحق، ودفع ما يكرهه الحق. فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد، كان دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله ومعلوم أن المحبوبات لاتنال غالبًا إلا باحتمال المكروهات، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة.

فالمحبون للمال والرئاسة والصور، لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا، مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة.

فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى ذو الرأي من المحبين لغير الله ما يحتملون في سبيل حصول محبوبهم، دل ذلك على ضعف محبتهم لله، إذ كان ما يسلكه أولئك في نظرهم، هو الطريق الذي يشير به العقل.

ومن المعلوم أن المومن أشد حبًا لله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(١).

نعم قد يسلك المحب – لضعف عقله وفساد تصوره – طريقًا لا يحصل له بها المطلوب. فمثل هذه الطريق لا تحمد إذا كانت المحبة صالحة محمودة. فكيف إذا كانت المحبة فاسدة، والطريق غير موصل؟ كما يفعله المتهورون في طلب المال والرئاسة والصور، من حب أمورٍ توجب لهم ضررًا ولا تحصل لهم مطلوبًا، وإنما المقصود: الطرق التي يسلكها ذو العقل السليم لحصول مطلوبه.

وإذا تبين هذا، فكلما ازداد القلب حبًا لله ازداد له عبودية ومعرفة وحرية عما سواه، وكلما ازداد له عبودية، ازداد له حبًا وفضله عما سواه.

وطبع الله علىٰ قلوبهم فهم لا يعلمون).

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦٥ .

kutub-pdf.net

والقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين:

من جهة العبادة، وهي العلة الغائية.

ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلة. فالقلب لا يصلح ولا يفلح، ولا ينعم، ولا يسر، ولا يلتذ، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات، لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وقوله والقلب فقير: هكذا قلب كل إنسان فقير بالذات إلى الله، وكلمة بالذات هنا معناها أنه لا يفتقر إلى غيره، فهو فقير إلى الله بالذات من جهتين، من جهة العبادة ومن جهة التوكل عليه، من جهة العبادة وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعنانة والتوكل على الله، فأنت أيها الإنسان، أيها العبد فقير بالذات إلى الله، ليس لك انفكاك عن العبادة، بل إنك إذ لم تعبد الله هلكت، ثم من الجهة الثانية أنت فقير إلى الله بالاستعانة والتوكل، ما تستطيع أن تعبد الله ولا أن تؤدي ما أوجب الله عليه ولا تنتهي عما حرم الله عليك إلا بإعانة الله لك وتوكلك عليه، فإذا أعانك الله فإنك تؤدي العبادة التي هي الغاية، وعلى ذلك فالإنسان فقير بالذات إلى الله من جهتين، وهذا هو معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، إياك نعبد، هذه العلة الغائية، وإياك نستعين هذه العلة الفاعلية، وعليهما مدار العبادة كلها، فمدار الشرائع كلها على إياك نعبد وإياك نستعين، ولهذا فإن الفاتحة جمعت ما في القرآن كله، القرآن جمع الله في ما في الكتب السابقة من المعاني والعلوم، وجمع الله ما في القرآن في الفاتحة، وما في الفاتحة كله مجموع في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقوله: ومن جهة الاستعانة والتوكل.

kutub-pdf.net

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ، ولم تحصل له عبادة لله فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها، إلا بإخلاص الحب لله، بحيث يكون الله هو غاية مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا محب شيئا لذاته إلا لله. له هذا، لم يكن قد حقق حقيقة : «لا إله إلا الله». فمتى لم يحصل هذا لم يكن قد حقق حقيقة لا إله إلا الله ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان، بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك، ولو سعى في هذا المطلوب، ولم يكن مستعينًا بالله متوكلاً عليه، مفتقرًا إليه في حصوله، لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

أي أنه مهما أعطى في الدنيا من أنواع ما يفرح القلب، وأنواع الملذات، فالقلب فقير وليس له راحة ولا طمأنينة إلا بعبادة الله، فإذا لم يعبد الإنسان الله فاته اللذة ولو أُوتي جميع أنواع الملذات فإنها لا تفيده شيئًا، فهو فقير بالذات إلى عبادة الله، فلا تسكن نفسه ولا تطمئن إلا بعبادة الله، ثم أيضا عبادة الله لا تحصل للإنسان إلا بإعانة الله وتوفيقه فلابد من الاستعانة بالله والتوكل عليه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وقوله وهذا لا يحصل إلى قوله لا إله إلا الله: أي كل شيء سوى الله محبوب فإنما يُحب لأجل الله، مثل محبة النبي ﷺ فإنها تابعة لمحبة الله، ومحبة الأنبياء، ومحبة الصالحين، هذه كلها تابعة لمحبة الله).

وقوله حقيقة لا إله إلا الله: معناها لا معبود بحق إلا الله، فالعبادة حق الله لا يشاركه فيها أحد لا نبي ولا ملك ولا غيره، حتى الرسول ﷺ فهو له المحبة والطاعة والاتباع والتصديق والتعظيم والتوقير، وهذه من حقوق الرسول، أما العبادة فهي حق الله).

kutub-pdf.net

فهو مفتقر إلى الله، من حيث هو المطلوب المحبوب، المراد المعبود، ومن حيث هو المسؤول المستعان به، المتوكل عليه، فهو إلهه الذي لا إله له غيره، وهو ربه الذي لا رب له سواه. ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين.

فمتى كان يحب غير الله لذاته، أو يلتفت إلى غير الله أن يعينه، كان عبدًا لما أحبه، وعبدًا لما رجاه، بحسب حبه له ورجائه إياه، وإذا لم يحب أحدًا لذاته إلا الله، وأي شيء أحبه سواه، فإنما أحبه له، ولم يرجُ قط شيئًا إلا الله، وإذا فعل ما فعل من الأسباب، أو حصل ما حصل منها كان مشاهدًا أن الله هو الذي خلقها وقدرها وسخرها له، وأن كل ما في السماوات والأرض، فالله ربه ومليكه وخالقه ومسخره، وهو مفتقر إليه، كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك.

والناس في هذا على درجات متفاوته، لا يحصي طرقها إلا الله. فأكمل الخلق وأفضلهم، وأعلاهم وأقربهم إلى الله، وأقواهم، وأهداهم: أتمهم عبودية لله من هذا الوجه.

وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره. فالمستسلم له ولغيره مشرك والممتنع عن الاستسلام له مستكبر.

وقوله: فمتى كان: ومعنى ذلك أن الإنسان لا يحب إلا الله ولا يرجو إلا الله، وإذا حصل له شيء من الأسباب الدنيوية فلا بد أن يشهد أن الله هو الذي خلق كل سبب في الدنيا، وكل شيء يحصل خلقه، فهو الذي هيىء وقدر الأسباب إذًا الأمر كله يرجع إلى الله، ولولا الله لما هيأ لنا السبب، ولولا الله ما حرك قلب الشخص حتى يعطى ما يعطى، فالله تعالى هو الذي خلق الأسباب والمسببات وهو الذي يحرك قلب هذا العبد حتى يعينك ويساعدك وهكذا، فالأمر كله لله، إذًا علّق قلبك بالله.

وقوله الناس في هذا: هذه حقيقة الإسلام الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به الكتب؛ أن يستسلم العبد لله، مع الإيمان به في الباطن دون كل ما سواه.

kutub-pdf.net

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ «أن الجنة لا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر «كما أن النار لا يخلد فيها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان[(١)]، فجعل الكبر مقابلاً للإيمان، فإن الكبر ينافي حقيقة العبودية.

والناس في هذا طبقات ثلاث :

الطبقة الأولى: الذي استسلم لله فقط ولم يستسلم لغيره، وهو في الباطن مؤمن بالله ورسوله عن صدق وإخلاص، هذا هو المؤمن.

القسم الثاني: الذي استسلم لله في الظاهر لكنه غير مؤمن بالباطن، وهؤلاء هم المنافقون في الدرك الأسفل من النار، يصلون ويصومون ويجاهدون مع النبي ﷺ لكنهم غير مؤمنين بالله ورسوله.

القسم الثالث: مستكبر عن الله، لا يستسلم لله فهذا كافر مستكبر عن الله، مثل فرعون وإبليس، فهذا معترف في الباطن ومصدق في الباطن لكن غير منقاد وغير مستسلم لله، ولهذا اعترض إبليس على الله لما أمره بالسجود لآدم، قال له: أنا لا أسجد لآدم، أنا خير منه، أنا عنصري أحسن من عنصر آدم، فعنصر آدم الطين وأنا عنصري النار، والنار أحسن من الطين ولا يمكن أن يخضع الفاضل للمفضول، عارض أمر الله، فهو عنده نص من الله (اسجدوا لآدم) لكنه قال: أنا لا أسجد، وعارض النص بالقياس الفاسد، فكان أول من قاس قياسًا فاسدًا إبليس، فطرده الله وصار شيطاناً رجيمًا، وكذلك فرعون جاءه النص من الله تعالى فعارضه، فصار مستكبرًا، والخلاصة أن الناس طبقات ثلاث، مستسلم لله مؤمن في الباطن، وهؤلاء هم المؤمنون، ومستسلم في الظاهر غير مؤمن في الباطن، وهؤلاء المنافقون، وغير مستسلم في الظاهر وإن كان مصدقًا في الباطن، وهذا كافر مثل فرعون وإبليس.

---

(١) رواه مسلم [٩١].

kutub-pdf.net

كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال (يقول الله: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته)(١).

فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية، والكبرياء أعلى من العظمة، ولهذا جعلها بمنزلة الرداء كما جعل العظمة بمنزلة الإزار.

ولهذا كان شعار الصلاة والأذان والأعياد: هو التكبير، وكان مستحبًا في الأمكنة العالية، كالصفا والمروة(٢)، وإذا علا الإنسان شرفاً (٣)، أو ركب دابة(٤) ونحو ذلك، وبه يطفأ الحريق وإن عظم(٥)، وعند الأذان يهرب الشيطان(٦) قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٧). وكل من استكبر عن

وقوله فالعظمة والكبرياء: والمعنى أن الكبر ضد الإيمان، فلا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فمن كان يتكبر عن عبادة الله فلا يدخل الجنة، فمن استكبر عن عبادة الله بحيث يمنعه هذا الكبر عن توحيد الله وإخلاص الدين له فهذا من أهل النار، أما إذا كان كبرًا فيما دون ذلك فيما هو أقل من هذا يتعلق بالمعاصي فهذا يكون معصية، كما أن النار لا يخلد فيها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ولو دخل النار، إذا كان موحدا مؤمنا ولو كان له

---

(١) رواه مسلم [٢٦٢٠] بلفظ الحديث النبوي [العز إزاره] وأخرجه أبو داود [٤٠٩٠] وابن ماجه [٤١٧٤] وأحمد [٤١٤، ٢٤٨] بلفظ المصنف رحمه الله.

(٢) كما رواه مسلم [١٢١٨] وأبو داود [١٩٠٧] عن جابر.

(٣) أخرجه البخاري [٦٣٨٥] ومسلم [١٣٤٤] عن ابن عمر.

(٤) كما رواه مسلم [١٣٤٢] والترمذي [٣٤٤٤] عن ابن عمر.

(٥) أورد هذا الحديث المصنف رحمه الله في الكلم الطيب رقم [٢٢١].

(٦) كما رواه البخاري [٢/ ٦٩، ٧٠] ومسلم [٣٨٩] عن أبي هريرة.

(٧) سورة غافر: آية ٦٠.

kutub-pdf.net

عبادة الله لا بد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أصدق الأسماء: حارث وهمام»[1].

فالحارث: الكاسب الفاعل، والهمام: فعّال من الهم، والهم أول الإرادة، فالإنسان له

معاصي يعذب في النار على قدر معاصيه ثم يخرج منها. وذلك أن الكبر ينافي حقيقة العبودية لله، ولهذا يقول الله تعالى: (العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدة منهما عذبته) فالعظمة والكبرياء هذه صفتان من صفات الله. يقول المؤلف رحمه الله صفتان من صفات الله ومن خصائص الربوبية، العظمة والكبرياء، والكبرياء أعلى ولهذا جعل العظمة بمنزلة الإزار والكبرياء بمنزلة الرداء، ولهذا كان شعار الصلاة والأذان التكبير (الله أكبر) في الأذان وفي الإقامة وفي الصلاة، ومستحب في الأمكنة العالية في الأسفار إذا علا الإنسان شرفا كبر الله، وقال المؤلف: وبه يطفأ الحريق، وهذا مجرب، إذا رأيت حريقًا تقول: الله أكبر الله أكبر، وتكثر من التكبير لأن هذا الحريق وهذه النار علت وارتفعت والله أعظم منها وأعلى، فالتكبير يطفئها، وكذلك عند سماع الأذان فعند الأذان كما في الحديث أن الشيطان يهرب، فإذا انتهى رجع، فإذا أقيمت الصلاة ولّى مرة ثانية وهكذا.

وقوله **فالحارث الكاسب**: بين المؤلف رحمه الله تعالى، أن الاستكبار عن عبادة الله يلزم منه الشرك، فكل مستكبر مشرك وذلك لأن من استكبر عن عبادة الله فلا بد أن يعبد الشيطان فإن كل إنسان حساس متحرك له إرادة، والإنسان حارث وكاسب وهمام، والهمام: فعال صيغة مبالغة من الهمّ، والهمّ أول الإرادة، فالإنسان له إرادة، فمن لم يكن الله مراده صار له مراد غير الله ولا

---

(١) رواه ابن وهب في جامعه [ص ٧] عن عبد الله بن عامر اليحصبي مرسلاً بإسناد صحيح.

kutub-pdf.net

إرادة دائمًا وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلا بد أن يكون له مراد محبوب، يستعبده غير الله، فيكون عبدًا لذلك المراد المحبوب: إما المال، وإما الجاه، وإما الصور، وإما ما يتخذه إلهاً من دون الله، كالشمس والقمر، والكواكب، والأوثان، وقبور الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أربابًا، أو غير ذلك مما عبد من دون الله.

بد فمن لم يكن الله مراده ومحبوبه فلا بد له من مراد ومحبوب ينتهي إليه وهو ما سوى الله، سواء كان شمسا أو قمرًا أو صورًا أو مالاً أو شخصًا أو غير ذلك. فمن لم يعبد الله لا بد أن يعبد غير الله، ولهذا كان فرعون مستكبرًا عن عبادة الله، وكان مشركًا وكان له إله يعبده، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى عن فرعون ﴿وقال الملأ من قوم فرعون: أتذرون موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك﴾ فأخبر الله أن لفرعون آلهة. فإذاً الكبر مستلزم للشرك، والشرك ضد الإسلام، والشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله عز وجل.

وبين المؤلف رحمه الله أن الكائنات كلها مسلمة لله، بمعنى أنها معبّدة، كل الكائنات المخلوقات كلها أسلمت لله ﴿ولو أسلم من في السماوات والأرض طوعًا وكرها﴾ فهي معبّدة بمعنى مدَّبرة ينفذ فيها قدر الله وتنفذ فيها مشيئته، وهذه العبادة بمعنى التعبيد والعبادة العامة هي التعبيد العام، وأما العبادة الخاصة فهي التي يألَه فيها العبد باختياره ويعبد الله ويطيع أوامره ويجتنب نواهيه.

وبين المؤلف رحمه الله: أن الخله أكملُ من المحبة وأنها أكمل مراتب المحبة، وأن إبراهيم خليل الله ومحمد خليل الله كلاهما خليل الله، وبين المؤلف رحمه الله: أن بعض الناس يقول الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد، ويظن أن المحبة فوق الخلة وهذا ضعيف، فالخُلّة من العبد تتضمن تحقيق كمال العبودية

kutub-pdf.net

....

لله، وكمال الخلة هي كمال المحبة وهي تستلزم من العبد كمال العبودية لله، وتستلزم من الرب كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم. والنبي ﷺ لم يتخذ أحدًا من الناس خليلا وإنما اتخذ ربه خليلا، لكن أخبر أنه يحب كثيرًا، فهو يحب أسامة ويحب الحسن، والله تعالى أخبر أنه يحب المتقين ويحب المقسطين ويحب التوابين ويحب المتطهرين، وأما الخلة فهي خاصة. وبين المؤلف رحمه الله أن الخلة والمحبة فيهما تحقيق عبودية الله عز وجل، وأن الخلة والمحبة إنما يعرف معناهما ويحقق ما دلت عليهما مَن عرف الله وعلم عظمة الله سبحانه وتعالى. وبين المؤلف رحمه الله: أن بعض شيوخ الصوفية حصل عندهم ضعف في العلم وضعف في العقل وحصلت لهم رعونة فانبسطوا في المحبة مع العبودية لله كدعوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقد أكذبهم الله بذلك، ومن رعونة بعض الصوفية وادعائهم لمحبة الله ما أثر عنهم من الأقوال السيئة، كقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار أحدًا فأنا منه بريء وقول الآخر: أي مريد لي ترك أحدًا من المؤمنين يدخل النار فإني منه بريئ. فالأول جعل مريده يخرج كل من في النار. والثاني جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار، ويقول بعض الصوفية: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي على جهنم حتى لا يدخلها أحد. كل هذا من السفه وضعف العقل وضعف العلم، يقول المؤلف: إنَّ هذا يصدر منهم في حال سُكر وغلبة فناء، أحيانا يسقط فيه التمييز عند بعضهم فيكون كالمجنون لا يميز، ولهذا إذا افاق فإنه يستغفر الله من هذه الأقوال. ودعوى هؤلاء المحبة باطل، والله تعالى امتحن قومًا ادعوا المحبة امتحنهم بهذه الآية ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾، فدعوى محبة الله لا بد لها من دليل، دليلها اتباع الرسول ﷺ والجهاد في سبيل الله على ما كان،

وإذا كان عبدًا لغير الله يكون مشركًا، وكل مستكبر فهو مشرك، ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكبارًا عن عبادة الله. وكان مشركًا. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ إلى قوله ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ إلى قوله ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[(١)].

من جاهد في سبيل الله حق الجهاد واتبع الرسول عليه الصلاة والسلام فهو صادق في محبته، وإذا تخلف في هذان الزمران فهو كاذب في دعوة محبته كالصوفية وأشباههم.

وقوله وإذا كان العبد: يعني أن من لم يعبد الله لا بد أن يعبد غيره، ليس هناك أحد ليس له معبود مطلقًا، بل الكل له معبود، من لم يعبد الله عبد الهوىٰ والشيطان، حتىٰ الملاحدة المتحللين من الأديان يعبدون الشيطان ويعبدون أهواءهم لأن الشياطين هي التي أمرتهم بذلك، فالملحد المتحلل من الأديان مشرك لأنه يعبد الشيطان والشيطان هو الذي أمره بذلك بعبادة هواه.

وهذه قاعدة عامة: ليس هناك أحد ليس له معبود، بل من لم يعبد الله عبد الشيطان والهوىٰ، فعلىٰ ذلك يكون من استكبر عن عبادة الله مشركا ولا بد، فمثلاً، فرعون مستكبر عن عبادة الله لكنه مشرك عبد هواه وعبد الشيطان، وكذلك إبليس مستكبر لأنه عبد هواه، فمن لم يعبد الله عبد غيره ولا بد، فكل أحد له معبود شاء أم أبىٰ فكل أحد من المخلوقين له معبود إن لم يعبد الله عبد الشيطان).

---

(١) سورة غافر: آية ٢٣ ـ ٣٥.

kutub-pdf.net

وقال تعالى: ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾(٢).

وقال ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(٣).

وقد وصف فرعون بالشرك في قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾(٤).

وقوله ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ﴾: وكل هذا من عبادة فرعون لهواه، فلما كان فرعون يعبد الهوىٰ ويعبد الشيطان لذلك علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، ولما استكبر عن توحيد الله وعن عبادة الله واستكبر عن اتباع رسول الله موسىٰ وهارون عليهما الصلاة والسلام، كان مستكبرا عن عبادة الله وكان مشركًا يعبد هواه ويعبد الشيطان، وكان له آلهة من دون الله كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾.

وقوله ويذرك وألهتك: الشاهد قوله ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ إذًا فرعون له آلهة يعبد يعبدها من دون الله، لأن الملأ و هم الأشراف من قومه قالوا له يخاطبونه: كيف تترك موسىٰ يفسد في الأرض ويتركك وآلهتك. وانظر كيف انقلبت الموازين حين جعلوا موسىٰ يفسد في الأرض، وموسىٰ يأمره بعبادة الله وتوحيد الله، قالوا: كيف تترك موسىٰ يفسد في الأرض ويتركك ويترك آلهتك التي

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٣٩.

(٢) سورة القصص: آية ٤.

(٣) سورة النمل آية ٢٤.

(٤) سورة الأعراف: آية ١٢٦.

kutub-pdf.net

بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارًا عن عبادة الله، كان أعظم إشراكاً بالله، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله، ازداد فقرًا وحاجة إلى المراد المحبوب الذي هو المقصود – مقصود القلب بالقصد الأول – فيكون مشركًا بما استعبده من ذلك. ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات، إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلى من عاداه الله، ولا يحب إلا لله، ولا يبغض شيئًا إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله.

فكلما قوي إخلاص حبه دينه لله كملت عبوديته، واستغناؤه عن المخلوقات. وبكمال عبوديته لله تكمل براءته من الكبر والشرك. والشرك غالب على النصارى، والكبر غالب على اليهود. قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ

تعبدها، وقد أخبر الله عن المنافقين قبل ذلك فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾. فسموا فسادهم صلاحًا، وسموا دعوة موسى عليه السلام إلى توحيد الله واتباع الحق سموها إفساداً في الأرض، كيف تترك موسى يفسد في الأرض، فهذه عادة أهل الباطل يرمون أهل الحق بدائهم نسأل الله السلامة والعافية.

وقوله بل الاستقراء: و بهذا يكون القلب قد استغنى عن جميع المخلوقات إذا اتصف بهذه الأوصاف، إذا كان الله هو مولاه ولا يعبد إلا إياه ولا يستعين إلا بالله، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يحب إلا ما يحبه، فدلالة ذلك أنه وافق الله في محابه ومرضاته ومساخطه، فيحب ما يحبه الله ويسخط ما يسخطه الله فهو موافق لوليه ومحبوبه.

kutub-pdf.net

مريم﴾(١).

وقال في اليهود: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾(٣).

ولما كان الكبر مستلزمًا للشرك، والشرك ضد الإسلام، وهو الذنب الذي لا يغفره الله – قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾(٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾(٥).

وقوله الشرك غالب: هذا هو الغالب على فرق اليهود العلم وتخلف العمل، فهم يعصون على بصيرة، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، ولكن يوجد منهم من ليس عنده علم، كما قال الله تعالى: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلى أماني﴾ يعني لا يعلمون الكتاب إلا مجرد التلاوة، وهؤلاء جهال، ولكن يغلب عليهم العلم وتخلف العمل. أما الذي يغلب علي طوائف النصارى فهو الجهل والضلال، ومع أن منهم علماء ومنهم رهبان وقسيسين، ولكن الغالب عليهم الجهل.

وقوله إن الله: فسمى الله الشرك ضلالا بعيداً، يعني وصل إلى حد الغاية في البعد، وهو فرية عظيمة، فالشرك أعظم الذنوب ولهذا لا يغفره الله، من لقي الله يشرك به الشرك الأكبر فإنه من أهل النار الخالدين فيها ولا نصيب له في الرحمة، نسأل الله العافية وهو يائس من رحمة الله، أما من لقيه بما دون الشرك فهو تحت المشيئة إن شاء غفر له وإن شاء عذبه.

---

(١) سورة التوبة : آية ٣١.

(٢) سورة البقرة: آية ٨٧.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٤٦.

(٤) سورة النساء: آية ٤٨.

(٥) سورة النساء: آية ١١٦

kutub-pdf.net

كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام، فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره، لا من الأولين، ولا من الآخرين. قال نوح ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]. وقال في حق إبراهيم: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2]. وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[3]. وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾[5].

وقالت بلقيس: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[6]. وقال: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[7]. وقال : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾[8]. وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[9]. وقال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[10].

وقوله كان الأنبياء: هذه النصوص كلها تدل على أن الأنبياء جميعًا كلهم مبعوثون بدين الإسلام ودينهم دين الإسلام، وهو دين الأنبياء جميعًا، فهو

---

(١) كما في سورة يونس: ٧٣.
(٢) سورة البقرة: آية ١٢٠ ـ ١٣٢.
(٣) سورة يوسف: آية ١٠١.
(٤) سورة يونس: آية ٨٤ ـ ٨٥.
(٥) سورة المائدة: آية ٤٤.
(٦) سورة النمل: ٤٤ حكاية عنها.
(٧) سورة المائدة: ١١١.
(٨) سورة آل عمران: ١٩.
(٩) سورة آل عمران: ٨٥.
(١٠) سورة آل عمران: ٨٣.

kutub-pdf.net

....

دين نوح ودين هود ودين صالح ودين لوط دين شعيب ودين إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم، بمعنى أنهم جميعًا جاءوا بتوحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وتعظيم أوامر الله، وأن يعظموا أوامر الله ويتمثلوها وينتهوا عن محارم الله، أما الشرائع فإنها تختلف من شريعة لأخرى، فالتكاليف تختلف من شريعة لأخرى، فمثلاً في شريعة يعقوب عليه الصلاة والسلام يجوز الجمع بين الأختين، وفي شريعتنا الكاملة منع ذلك، وكذلك في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام جاء على ما يدل على أن القصاص يجب، وفي شريعة النصارى يجب العفو، وفي شريعتنا يخيّر أولياء القتيل بين القصاص وبين العفو إلى الدية وبين العفو مجاناً، فالشرائع تختلف من شريعة لأخرى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا﴾ .

فالإسلام دين الله ودين الأنبياء جميعًا، كلهم أَمروا بتوحيد الله، فكل نبي يقول لقومه ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أمروا بتوحيد الله ونهوا عن الشرك، وأمروا بالإيمان بالكتب المنزلة والرسل وباليوم الآخر وبالبعث وبالجزاء وبالجنة والنار وبالقدر خيره وشره وبتعظيم الأوامر والنواهي وهكذا. فدين الإسلام في زمن نوح توحيد الله والعمل بما جاء به نوح من الشريعة، ودين الإسلام في عهد هود توحيد الله واتباع ما جاء به هود من الشريعة، ودين الإسلام في زمن إبراهيم توحيد الله والعمل بما جاء به من الشريعة، ودين الإسلام في زمن موسى هو توحيد الله والعمل بما جاء به موسى من الشريعة وهكذا حتى بعث الله نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وكانت شريعته خاتمة لجميع الشرائع، أما توحيد الله وإخلاص الدين له والإيمان بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر والقدر فهو دين الله في كل زمان وفي كل مكان.

kutub-pdf.net

فذكر إسلام الكائنات طوعًا وكرهًا، لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد العام، سواء أقر المقر بذلك أو أنكره، وهم مدينون له مدبرون، فهم مسلمون له طوعًا وكرهًا، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو رب العالمين ومليكهم، يصرفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلهم، وبارئهم ومصورهم.

وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع مفطور، فقير محتاج معبد مقهور، وهو سبحانه الواحد القهار، الخالق البارىء المصور.

وهو وإن كان قد خلق ما خلقه بأسباب فهو خالق السبب والمقدر له، وهو مفتقر إليه كافتقار المسبَّب، وليس في المخلوقات سبب مستقل بفعل خير ولا دفع ضر، بل كل ما هو سبب فهو محتاج إلى سبب آخر يعاونه. وإلى ما يدفع عنه الضد الذي يعارضه ويمانعه.

وهو سبحانه وحده الغني عن كل ما سواه، ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه ويعارضه. قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(١). وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢). وقال تعالى عن الخليل: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ إلى قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٣).

وقوله وإن كان قد: المعنى أن هناك أسبابًا ربطها الله بالمسببات، وليس هناك سبب واحد يستقل في حصول المطلوب، بل كل شيء ربطه الله بأسباب وموانع، فإذا وجدت الأسباب وانتفت الموانع حصل المطلوب، وليس هناك

---

(١) سورة الزمر: آية ٣٨.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٧.

(٣) سورة الأنعام: آية ٧٨ ـ ٧٢.

kutub-pdf.net

وفي «الصحيحين»(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله! أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال: «إنا هو الشرك»، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢). و إبراهيم الخليل إمام الحنفاء المخلصين، حيث بعث وقد طبق الأرض دين المشركين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٣). فبين أن عهده بالإمامه لا يتناول الظالم، فلم يأمر الله سبحانه أن يكون الظالم إماماً، وأعظم الظلم الشرك.

شيء له تأثير مستقل إلا مشيئة الله؛ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، أما المخلوقات فليس هناك شيء يستقل منها في حصول المطلوب، بل كل سبب لا بد له من أسباب تعاونه ولا بد من مواقع تمنعه، فإذا وجدت الأسباب وانتفت الموانع حصل المطلوب. مثلاً إذا كان لك أرض تريد أن تزرعها لا بد أن تفعل الأسباب، ولا يكفي سبب واحد، فكونك تبذر مثلاً لا بد أن تحرث الأرض وتجري عليها الماء، وتسقيه، ثم أيضًا لا بد من صرف الموانع الآفات التي تصيب الزرع، قد يصيبها آفات، فإذا وجدت الأسباب وانتفت الموانع حصل الزرع وإلا فلا يحصل، وهكذا جميع الأسباب، كل الأسباب ربطها الله بالمسببات وليس هناك سبب واحد يستقل في حصول المطلوب إلا مشيئة الله، بل كل سبب لا بد له من أسباب تعينه ولا بد له من موانع تمنع، فإذا وجد السبب ووجدت الأسباب المعينة وانتفت الموانع حصل المطلوب وإلا فلا يحصل.

وقوله وفي الصحيحين: الظلم كما هو معلوم ثلاث أنواع: النوع الأول - وهو أعظمها - هو الشرك بالله عز وجل، وهذا هو الظلم الأكبر، وهذا الذي من لقي الله به فإنه مخلداً في النار ليس له نصيب في الرحمة، قال الله تعالى:

---

(١) رواه البخاري [١/ ٨١] ومسلم [١٢٤].

(٢) سورة لقمان: آية ١٣.

(٣) سورة البقرة: آية ١٢٤.

kutub-pdf.net

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١]. والأمة هو: معلم الخير الذي يؤتم به، كما أن القدوة: الذي يقتدي به.

والله تعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب، وإنما بعث الأنبياء بعده بملته.

قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وسُمي ظلمًا لأن المشرك وضع العبادة في غير موضعها، لأن الظلم معناه هو وضع الشيء في غير موضعه، والمشرك وضع العبادة في غير موضعها حيث صرف حق الله ومحض حق الله الذي لا يستحقه غيره إلى مخلوق ناقص ضعيف فعبد غير الله، ودعا غير الله وذبح لغير الله فصرف العبادة التي لا يستحقه إلا الله لغيره، وهذا أعظم الذنب.

النوع الثاني: ظلم العباد بعضهم لبعض، كالاعتداء على الناس في دمائهم أموالهم أعراضهم، فهذه مبنية على المشاحة ولا بد من أداء المظالم إلى أهلها، فإن لم يؤدها في الدنيا أديت في الآخرة من حسناته، وهو المفلس كما في الحديث: (أتدرون من المفلس قالوا يا رسول الله: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وأعمال كالجبال ويأتي وقد شتم هذا وضرب هذا وسفك دم هذا وأخذ مال هذا فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار).

النوع الثالث: ظلم العبد لنفسه فيما بينه وبين الله بما يتعلق بحقوق الله التي لم تصل إلى حد الشرك وليست من حقوق العباد، كأن يقصر في بعض الواجبات ويفعل بعض المحرمات التي لا تتعلق بحقوق الآخرين.

وقوله: **وقال تعالى إن إبراهيم كان**: نعم بعث الله الأنبياء بعد إبراهيم عليه السلام بملته وكلهم من ذريته، فكل الأنبياء الذي جاؤا بعد إبراهيم من ذريته

---

(١) سورة النحل: آية ١٢٠.

(٢) سورة النحل: آية ١٢٣.

kutub-pdf.net

....

ومن سلالته، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ وإبراهيم عليه الصلاة والسلام رزقه الله تعالىٰ بابنين وهما نبيان كريمان؛ الأول إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهذا هو بِكره وأمه هاجر ويقال لها آجر، وهي التي أهداها ملك مصر في ذلك الزمن إلىٰ ساره، لما مر عليه الصلاة والسلام وزوجته ساره بنت عمه وهي من أجمل النساء قيل له إن هنا رجلاً معه إمرأة من أجمل النساء لا ينبغي أن تكون إلا لك وكانت إمرأة صالحة، فقال لها إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنه ليس علىٰ وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وسأقول إنك اختي حتىٰ لا يحصل فيه غيرة، ويأول أنها أخته في الإسلام، قال أنت أختي في الإسلام ليس في الأرض مؤمن غيري وغيرك فأخذها الملك وكشف الله لإبراهيم عنه فكان هذا الملك كلما مد يديه إليها أصيب وسقط وجعل يفحص برجله، هذا من حماية الله لأوليائه، فدعت ربها وقالت يا ربي إن يمت يقال قتلته فأفاق ثم مد يده مرة أخرىٰ فسقط وأُغمي عليه وجعل يفحص برجله، وقالت: ربي اللهم إن يمت يقال قتلته، فعل هذا ثلاث مرات، فلما أفاق في المرة الثالثة قال أخرجوها عني إنما جئتوني بشيطانة وأعطاها سارة فأعطتها إبراهيم عليه الصلاة والسلام فتسرّها فولدت له إسماعيل، وكانت زوجته سارة وهي بنت عمه عقيما لا تلد، فلما تسرىٰ هاجر ولدت له إسماعيل، وكانت كريمة علىٰ الله، ومن كرم سارة علىٰ الله أن الله تعالىٰ - بما أراد من الحكمة - أمر إبراهيم أن يذهب بهاجر وابنها إلىٰ مكة وكانوا في الشام، فذهب بهما ثم رزق الله سارة بعد ذلك بولد صار نبيا وهو إسحاق بعد مدة بينهما ما يقرب من اثني عشر سنة أو أكثر، فإسماعيل عليه الصلاة والسلام من سلالته نبينا محمد ﷺ وهو الأب الثاني وهو أبو العربِ، فالأب الأول إبراهيم والأب الثاني إسماعيل أبو العرب، وأما إسحاق الولد الذي من سارة فقد انجب يعقوبًا، ويعقوب هو إسرائيل وأنبياء بني إسرائيل كلهم من سلالته، ويعقوب أنجب يوسف فكان يوسف نبينًا وأبوه يعقوب نبيًا وإسحاق نبينًا وجده الثاني إبراهيم نبينًا، ولهذا جاء في الحديث الكريم ابن الكريم ابن الكريم، ابن الكريم يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم ، فإسماعيل من ذريته نبينا محمد

kutub-pdf.net

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[(٢)]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[(٣)].

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ : «أن إبراهيم خيرُ البريَّة»[(٤)]. فهو أفضل الأنبياء بعد النبي ﷺ ، وهو خليل الله تعالى.

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال: (إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً)[(٥)].

عليه الصلاة والسلام. وإسحاق من ذريته أنبياء بني إسرائيل كلهم وآخرهم عيسىٰ عليهم الصلاة والسلام، فصار إسماعيل وإسحاق أخوان وصار أولاد إسماعيل وأولاد إسحاق أبناء العم، فيكون بنو إسرائيل والعرب هم أبناء العم في الأصل، فعلىٰ هذا يكون جميع الأنبياء الذين بعثوا بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام كلهم من سلالته، كما قال تعالىٰ: ﴿**وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب**﴾ لأن إسماعيل من سلالته نبينا عليه الصلاة والسلام وإسحاق من سلالته جميع أنبياء بني إسرائيل الذين آخرهم عيسىٰ عليه الصلاة والسلام.

وقوله إن الله اتخذني: وعلىٰ هذا تكون الخلة لإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام، فإبراهيم خليل الله ومحمد خليل الله عليهم الصلاة

---

(١) سورة آل عمران: آية ٦٨.

(٢) سورة آل عمران: آية ٦٧.

(٣) سورة البقرة: آية ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٤) رواه مسلم [٢٣٦٩] وأبو داود [٤٦٧٢] والترمذي [٣٣٥٢]

(٥) رواه مسلم [٥٣٢] عن جندب.

kutub-pdf.net

وقال : (لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبابكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله)(١) . - يعني نفسه - وقال (لا تُبقين في المسجد خَوخَة إل سدت إلا خوخة أبي بكر)(٢).

وقال: (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك)(٣).

وكل هذا في «الصحيح» وفيه(٤) أنه قال ذلك قبل موته بأيام، وذلك من تمام رسالته، فإن في ذلك تمام تحقيق مخاللته لله التي أصلها محبة الله تعالى للعبد ومحبة العبد لله، خلافاً للجهمية)(٥).

والسلام . وهما أفضل الرسل وأفضل الخلق، ونبينا محمد ﷺ أكمل الخليلين، أكمل وأفضل من جده إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، ويليه جده إبراهيم في الفضيلة فكلاهما خليل الله، وأما زعم بعض الناس ـ كما سيبين المؤلف ـ أن إبراهيم خليل الله ومحمداً حبيب الله، فهذا ضعيف وليس بصحيح، لأن الخلة كمال للمحبة، وهي أعلى مراتب المحبة و تستلزم من العبد كمال العبودية لله، والمعنى أن إبراهيم الخليل وصل إلى كمال العبودية لله عز وجل، وهذا يستلزم كمال الربوبية .

وفي ذلك تحقيق توحيد الله، وأن لا يعبدوا إلا إياه، فالخلة والمحبة صفتان لله كسائر صفاته التي تليق بجلاله وعظمته، لكن تستلزم كمال الربوبية من الرب، أما بالنسبة للمخلوق إبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام وهما خليلي الله، الخلة لهما تستلزم كمال العبودية منهما لله عز وجل .

---

(١) رواه البخاري [١٠/ ١٠] ومسلم [٢٣٨٢].
(٢) جزء من الحديث السابق.
(٣) رواه مسلم [٥٣٢].
(٤) أي في الحديث نفسه [قبل أن يموت بخمس].
(٦) انظر درء تعاضي العقل [٦/ ٥٩/ ٦٣].

kutub-pdf.net

وفي ذلك تحقيق توحيد الله أن لا يعبدوا إلا إياه ردا على أشباه المشركين.

وفيه رد على الرافضة الذين يبخسون الصديق رضي الله عنه حقه، وهم أعظم المنتسبين إلى القبلة إشراكًا بعبادة عليّ وغيره من البشر.

وقوله فيه رد على الرافضة: وجه كون الرافضة أعظم المنتسبين إلى القبلة إشراكًا أن الرافضة يعبدون آل البيت ويتوسلون بآل البيت ويزعمون أن النبي ﷺ نص على اثني عشر إماما بعده وأن أولهم علي بن أبي طالب، ثم الحسن بن علي ثم الحسين بن علي، ثم علي بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن علي الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم علي بن موسى الرضى، ثم محمد بن علي الجواد، ثم علي بن محمد الهادي، ثم الحسن بن علي العسكري، ثم محمد بن الحسن الخلف الحجة المهدي المنتظر الذي دخل سرداب سمراء في سنة ستين ومائتين وما خرج إلى الآن، يقول شيخ الإسلام بلغ أربعمائة سنة وما خرج، ونحن الآن نقول له مائتان وألف سنة وما خرج، وهم في أوقات معينة من كل سنة يأتون بدابة ويقفون على باب السرداب وينادون بصوت جمهوري يا مولانا اخرج، يامولانا اخرج. هكذا ذكره شيخ الإسلام وذكره غيره وأخبرني بعض الإخوان الطيبين من أهل البلاد هناك أنه إلى الآن يُفعل ذلك، وهناك أناس يقفون في هذا الوقت في أماكن من الدنيا ويعيده عن المشهد ولا يصلون بعضهم في الشرق وبعضهم في الغرب وبعضهم في المدينة وفي غيرها لايصلون يقولون نخشى أن يخرج المهدي المنتظر ونحن في الصلاة مشتغلين عن خدمته، هذا من جهلهم ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ وهم يتوسلون إلى الآن كما هو معروف عنهم بآل البيت، بعلي ثم الحسن، فيقولون: يا حسين يا علي يا كذا يا ولي الله كن لي شفيعًا عند الله، حتى بعض الحجاج الآن يتوسلون بهم، يبدأون بعلي حتى ينتهون بالمهدي

kutub-pdf.net

والخلة: هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله، ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه. ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب، فإنهم يقولون: قلب متيم إذا كان متعبدًا للمحبوب.

والمتيم: المتعبد.

وتيم الله: عبد الله، وهذا - على الكمال - حصل لإبراهيم ومحمد ﷺ.

ولهذا لم يكن له ﷺ من أهل الأرض خليل، إذا الخلة لا تحتمل الشركة.

المنتظر، ويتوسلون بهم واحداً بعد واحد، فهذا لا يخفى أنه شرك أكبر لأنه عبادة لهم من دون الله، وكذلك دعواهم أن القرآن طار ثلثيه هذه رده نسأل الله العافية ـ ومن ادعى منهم هذا كان كافراً ومرتداً لأن هذا مصادم لقول الله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾، وكذلك سبّ الصحابة كلهم واعتقاد كفرهم، لأن هذا سب للدين الذي حملوه، فإذا كان الذين حملوا الدين كلهم كفاراً وكلهم فسقه فكيف يوثق بهذا الدين.

وقوله وتيم الله: إذ لا يتسع القلب لأكثر من خليل فإن الخليل هو الذي امتلأ قلبه بخلة خليله، فنبينا عليه الصلاة والسلام امتلأ قلبه بخلة الله عز وجل، وليس فيه متسع لأحد، ولو كان فيه متسع لكان لأبي بكر، لكن ما فيه متسع ولهذا قال النبي ﷺ (لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لأتخذت أبابكر خليلا﴾ يعني لو كان في قلبي متسع لكان لأبي بكر، ولكن قلبي امتلأ بخلة الله عز وجل. لكن القلب يحب أكثر من واحد يُتسع القلب لمحبة كثيرين، ولهذا كان النبي ﷺ يحب كثيرين يحب عائشة ويحب الحسن والحسين ويحب أسامة ويحب أبابكر ويحب غيرهم، أما الخلة فما اتسع قلبه إلا لخلة الله عز وجل، والخلة لا تقبل الشركة، هذا بالنسبة للمخلوق وهو نبينا عليه الصلاة والسلام،

kutub-pdf.net

فإنه كما قيل في المعنى:

قد تخللت مسلك الروح مني

وبذا سمي الخليل خليلاً

بخلاف أصل الحب، فإنه ﷺ قد قال في الحديث الصحيح في الحسن وأسامة: «اللهم إني أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما» (١) وسأله عمرو بن العاص: «أي النساء أحب إليك؟ قال: عائشة.

قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها». وقال لعلي رضي الله تعالى عنه: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» (٢) وأمثال ذلك كثير.

وقد أخبر تعالى أنه: ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣). ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤). ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٥). و: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٦). و: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (٧). وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (٨).

أما الخلة بالنسبة لله فوصف يليق بعظمته وجلاله، لكن من مستلزماتها تحقيق الربوبية للخليل :

---

(١) رواه البخاري [٢٧٣٥]، [٣٧٤٧].

(٢) أخرجه البخاري [٣٠٠٩]، [٣٧٠١]، [٤٢١٠].

(٣) سورة آل عمران: آية ٧٦.

(٤) سورة البقرة : ١٩٥ .

(٥) سورة الحجرات: ٩.

(٦) سورة البقرة: آية ٢٢٢.

(٧) سورة الصف: آية ٤.

(٨) سورة المائدة: آية ٥٤.

kutub-pdf.net

فقد أخبر بمحبته لعباده المؤمنين ومحبة المؤمنين له، حتى قال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(١).

أما الخلة فخاصة، وقول بعض الناس: إن محمدًا حبيب الله وإبراهيم خليل الله، وظنه أن المحبة فوق الخلة، قول ضعيف فإن محمدًا أيضًا خليل الله، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة المستفيضة.

وما يروى أن العبّاس يحشر بين حبيب وخليل، وأمثال ذلك، فأحاديث موضوعة لا تصلح أن يعتمد عليها.

وقد قدمنا أن محبة الله تعالى هي: محبته ومحبة ما أحب، كما في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار(٢).

أخبر النبي ﷺ أن من كان فيه هذه الثلاث، وجد حلاوة الإيمان، لأن وجد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له، فمن أحب شيئًا أو اشتهاه، إذا حصل له به مراده، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى.

ومن قال: إن اللذة إدراك الملائم - كما يقوله من يقول من المتفلسفة والأطباء(٣) - فقد غلط في ذلك غلطًا بينًا، فإن الإدراك يتوسط بين المحبة واللذة، فإن الإنسان مثلاً يشتهي الطعام،

وقوله وما يروى أن: أي أن ما يروي من آية العباس يعني ابن عبد المطلب يحشر بين حبيب وخليل، والحبيب هو محمد، وبين خليل وهو إبراهيم هذا كذب، لأن محمدا أيضًا خليل عليه الصلاة والسلام فمحمد وإبراهيم كلاهما خليل الله.

وقوله وهكذا جميع ما يحصل: يعني حلاوة الإيمان التي تتضمن اللذة والفرح بما يجده المؤمن تتبع كمال المحبة، وهذا الحلاوة التي تتبع كمال المحبة

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦٥.   (٢) سبق التخريج.

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل [٦/ ٦٩/ ٧٥] للمصنف.

kutub-pdf.net

فإذا أكله حصل له عقيب ذلك اللذة، فاللذة تتبع النظر إلى الشيء، فإذا نظر إليه التذ به. واللذة التي تتبع النظر ليست نفس النظر، وليست هي رؤية الشيء، بل تحصل عقيب رؤيته.

وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾(١) .

وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات والآلام: من فرح، وحزن، ونحو ذلك يحصل بالشعور بالمحبوب، أو الشعور بالمكروه، وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن. فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به والفرح بما يجده المؤمن الواجد حلاوة الإيمان، تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفريغها، ودفع ضدها. فتكميلها:

أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفي فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما تقدم. وتفريغها:

تكون بثلاث أمور تكميل المحبة وتفريغها عما سواه ودفع ضدها عما سواه، أولاً يحتاج إلى تكميل هذه المحبة وتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وتفريغها أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، ودفع ضدها أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار، الأمور الثلاثة ذكرها النبي ﷺ تتضمن حصول الحلاوة التي تتبع كمال محبة الله، فالذي يحب الله ورسوله أحب مما سواهما والذي يحب المرء لا يحبه إلا لله والذي يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه يحصل له كمال المحبة وتحصل له حلاوة الإيمان لأنه كمّل المحبة وفرّغها ودفع ضدها).

---

(١) سورة الزخرف: آية ٧١.

kutub-pdf.net

أن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

ودفع ضدها:

أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار.

فإذا كانت محبة الرسول والمؤمنين من محبة الله، وكان رسول الله ﷺ يحب المؤمنين الذين يحبهم الله، لأنه أكمل الناس محبة لله، وأحقهم بأن يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه.

والخلة ليس لغير الله فيها نصيب، بل قال: (لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبابكر خليلاً)(١). علم مزيد مرتبة الخلة على مطلق المحبة.

والمقصود: هو أن الخلة والمحبة لله: تحقيق عبوديته.

وإنما يغلط من يغلط في هذه من حيث يتوهمون أن العبودية مجرد ذل وخضوع فقط، لا محبة معه، وأن المحبة فيها انبساط في الأهواء أو إذلال لا تحتمله الربوبية، ولهذا يذكر عن ذي النون. أنهم تكلموا عنده في مسألة المحبة فقال: أمسكوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها.

وقوله: أن يحب المرء: لأنه إذا صارت محبوباته كلها تابع لمحبة الله، فرغ المحبة مما يشوبها فصارت كل المحبة لله، يحب الله ويحب ما يحبه الله من الأنبياء والصالحين، فإذا كانت المحبوبات الأخرى كلها تابعة لمحبة الله فمعناه أنه فرغها من غيرها، ثم يدفع ما يضادها بأن يكره الكفر كما يكره الإلقاء في النار.

وقوله الخلة ليس: لأن الخلة آخر مرتبة في المحبة فهي نهاية المحبة، والمحبة كما سبق مراتب: أولها العلاقة ثم الصبابه والغرام. . . إلخ ثم النهاية وكمال مراتبها الخلة، وهي آخر مرتبة في المحبة، فالخلة هي كمال المحبة ونهايتها.

---

(١) سبق تخريجه.

kutub-pdf.net

وكره من كره من أهل المعرفة والعلم مجالسة أقوام يكثرون الكلام في المحبة بلا خشية.

وقال من قال من السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري. ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحِّد.

وقوله **قال من قال من السلف**: الناس أقسام أربعة: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق متحلّل من الديانة، يدعي أنه يعبد الله بالحب، لكن ما يخاف الله ولا يرجوه ولهذا يذكر عن بعض الصوفية ـ كما في كتب الوعظ ـ وينسب إلى رابعة العدوية أنها قالت: ما عبدت الله خوفًا من ناره ولا طمعًا في جنته فأكون كأسير السوء، وإنما عبدته حبًا لذاته وشوقًا إليه. تقول أنا لا أعبده خوفًا وطمعًا، لأنني إذا عبدته خوفًا وطمعاً أكون مثل الإنسان النفعي، ما يعبده إلا لأجل شيء ينفعه، بل أنا أعبده حبًا لذاته فقط ما لا خوف ولا رجاء، حتى قال بعضهم إنه يحب العذاب ويحب العذاب ويحب النار، فقيل له لِمَ؟ قال: لأنني إذا تمتعت بالجنة معناه صارت تميل نفسي إليه، فكان مع هواه، أما إذا عذب في النار صار مخالفا لهواه فهو يرغب في عذاب النار، نسأل الله السلامة والعافية. وهذه تقول ما عبدت الله خوفا من ناره ولا طمعاً في جنته فأكون كأسير السوء، والله تعالى أخبر عن أنبيائه ورسوله لما ذكر الأنبياء إبراهيم ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وزكريا ويحيى وعيسى قال **﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا﴾** خوفاً ورجاء، ويدعون ربهم خوفا وطمعًا، لابد أن تعبد الله بالحب وبالخوف والرجاء، ومن عبد الله بالخوف وحده فهذا حروري، على طريقة الحرورية الخوارج، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف والحب والرجاء فهو مؤمن موحد، وهذا يوجد في كتب الوعظ وللصوفية كثير.

kutub-pdf.net

ولهذا وجد في المتأخرين من انبسط في دعوى المحبة، حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة والدعوى التي تنافي العبودية، وتدخل العبد في نوع الربوبية التي لا تصلح إلا لله، فيدعي أحدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين، أو يطلب من الله ما لا يصلح بكل وجه إلا لله، لا يصلح للأنبياء ولا المرسلين.

وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ وسببه ضعف تحقيق العبودية التي بينها الرسل، وحددها الأمر والنهي الذي جاءوا به بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته وإذا ضعف العقل، وقل العلم بالدين، وفي النفس محبة طائشة جاهلة، انبسطت النفس بحمقها في ذلك، كما ينبسط الإنسان في محبة الإنسان مع حمقه وجهله، ويقول: أنا محب فلا أؤاخذ بما أفعله من أنواع يكون فيها عدوان وجهل.

فهذا عين الضلال وهو شبيه بقول اليهود والنصارى ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[(١)].

قال الله تعالى: ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ فإن تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضي أنهم غير محبوبين ولا منسوبين إليه بنسبة البنوة بل

وقوله وهذا باب: وهؤلاء الشيوخ الذين يقصدهم المؤلف هم شيوخ الصوفية، وهذه هي دعواهم، وقوله (هذا هو السبب) أي السبب ضعف تحقيق العبودية عندهم التي تحريرها الأمر والنهي، أي أوامر الله ونواهيه، بل ضعف العقل، فحصل عندهم ضعف العبودية وضعف العلم وضعف العقل، فصدرت منهم هذه الأقوال السيئة والأفعال السيئة.

وقوله وإذا ضعف: أي أن هذه دعوىٰ باطلة، فقوله إنه لا يؤاخذ بما يفعله يعني أنه محبوب لله فلا يؤاخذه بالمعاصي، وهذه كقول اليهود والنصارىٰ ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، قال الله رداً عليهم ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾. ليكون العدوان: سبباً لبغض المحبوب له، ونفوره عنه، بل سبباً لعقوبته.

---

(١) سورة المائدة: آية ١٨.

kutub-pdf.net

يقتضي أنهم مربوبون مخلوقون.

فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه، ومحبوبه لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان، ومن فعل الكبائر وأصر عليها ولم يتب منها فإن الله يبغض منه ذلك، كما يحب منه ما يفعله من الخير، إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه.

ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تداويه منه لصحة مزاجه.

ولو تدبر الأحمق ما قص الله في كتابه من قصص أنبيائه وما جرى لهم من التوبة والاستغفار وما أصيبوا به من أنواع البلاء الذي فيه تمحيص لهم وتطهير بحسب أحوالهم علم بعض ضرر الذنوب بأصحابها ولو كان أرفع الناس مقاماً.

وقوله ومن ظن أن: هذا من غرور الشيطان وزعم بعض الصوفية، أن الذنوب لا تضره، يقول أنا بلغت مرتبة عند الله وأنا محبوب لله فلا تضرني الذنوب ولا المعاصي ولا التقصير في الواجبات، مثل البحر لا يضره ما تضع فيه من النجاسة ولا تكدره الدلاء، ويقول. أنا وصلت إلى الله وبلغت درجة من المحبة لا تضرني معها المعاصي، وهذا من غرور الشيطان، واستحواذه عليهم مثل من يقول إنه يتناول السم ولا يضره لأن مزاجه صحيح وعنده منعة وقوة، وهذا لا يقول به عاقل.

وقوله ولو تدبر: نعم لو تدبر قصة آدم عليه الصلاة والسلام ﴿وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتابه ربه فتاب عليه﴾، وآدم نبي، وكذلك قال الله عن موسى ﴿ربي إني ظلمت نفسي فاغفرلي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾، وقال عن داود عليه السلام ﴿فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب﴾، وقال عن نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ فكيف يقول هؤلاء الصوفية إنهم لاتضرهم الذنوب،

kutub-pdf.net

فإن المحب للمخلوق إذا لم يكن عارفًا لمصلحته ولا مريدًا له بل يعمل بمقتضى الحب وإن كان جهلاً وظلمًا كان ذلك سببا لبغض المحبوب له ونفوره عنه بل لعقوبته.

وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حب الله أنواعًا من أمور الجهل بالدين.

إما من تعدى حدود الله، وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقة لها.

كقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار أحدًا فأنا بريء منه. فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحدًا من المؤمنين يدخل النار فأنا منه بريء.

فالأول: جعل مريده يخرج كل من في النار.

والثاني: جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار.

والأنبياء أرفع الناس مقامًا ومع ذلك أخبر الله أنهم محصوا وأنهم طهروا وأن الله تاب عليهم.

وقوله: **فإن المحب**: وهذا واقع إذا كان يعمل بمقتضى هواه، ولو كان جهلاً وظلمًا فلا يكون هذا سببا في محبة الله بل يتسبب في بغضه وعقوبته إما في الدنيا أو في الآخرة.

وقوله **وكثير من**: يعني بالسالكين هنا الصوفية، فهم يسمون سالكين لأنهم سالكون إلى الله بزعمهم. وهذا الذي ادعوه من استحواذ الشيطان عليهم، بعضهم يرى أنه إذا وصل إلى مرتبة من العلم وعلم أن ما قدر سيكون وألغى صفاته وجعلها صفة الله سقط عنه التكليف ولا يبالي ولا تضره المعاصي، والمعاصي للعامة أما هو فهو من الخاصة الذين لا تضرهم المعاصي، هذا من استحواذ الشيطان عليهم، يضيع حقوق الله ويتعدى حقوق الله ويقول إنه لا يضره هذا، وتصدر منه هذه الدعاوى الباطلة وهذه الأقوال التي سيذكرها المؤلف رحمه الله.

kutub-pdf.net

ويقول بعضهم: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي على جهنم حتى لا يدخلها أحد.

وأمثال ذلك من الأقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين. وهي إما كذب عليهم، وإما غلط منهم.

وقوله كقول بعضهم: هذه كلها أقوال كفرية نسأل الله العافية، (أي مريد لي) يقصد ربه (أي مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فأنا منه برئ) يعني تبرأ من الله.

والثاني يقول: أي مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فأنا منه برئ، تبرأ من الله.

والثالث كذلك ادعى أنه إذا كان يوم القيامة نصبت خيمته على جهنم حتى لا يدخلها أحد. وهذه الأقوال كفرية.

لكن المؤلف يرحمه الله يقول: إن هذه الأقوال أحيانا تصدر منهم وقد حصل لهم حالة سكر وغلبة وفناء، أي من شدة الشهود حصل له غيبوبة فتصدر منه هذه الأقوال وهو ما عنده عقل ولا عنده تمييز فيكون من جنس المجانين فيكون معذوراً لأنه مرفوع عنه القلم، وإلا لو قالها ومعه عقله يكون كافراً، لكن المؤلف رحمه الله يقول قد تصدر منهم هذه الأقوال والواحد عنده غيبوبة بسبب السكر والاصطلام والمحو والجمع من شدة الشهود ينسى كل شيء حتى ينسى نفسه، حتى إن بعضهم من شدة شهوده لربه بزعمه ينسى كل شيء ولا يتحرك وتقع عليه الطيور ولا يتحرك ولا يعقل شيئًا، ويعصب عينه ويدعي أنه تحصل له أنوار وهي أنوار شيطانية، هكذا تستحوذ عليهم الشياطين، فهذه الأقوال أقوال كفرية، من قالها وعقله معه فهو كافر مرتد لأنه تبرأ من الله وادعى أنه يتصرف يوم القيامة نسأل الله العافية.

قوله وإما كذب: ما حصل إما كذب عليهم وإما غلط منهم بسبب قوة الشهود والغيبوبة التي حصلت لهم وعدم التمييز.

kutub-pdf.net

ومثل هذا قد يصدر في حال سكر وغلبة وفناء.

يسقط فيها تمييز الإنسان، أو يضعف حتى لا يدري ما قال.

والسكر هو لذة مع عدم تمييز.

ولهذا كان من هؤلاء من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام.

والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام.

كان هذا أصل مقصدهم، فإن هذا الجنس يحرك ما في القلب من الحب كائنًا ما كان ولهذا أنزل الله محنة يمتحن بها المحب فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(١).

وقوله ومثل هذا: هذه أحوال الصوفية، السكر يعني السكر من شدة الحب، يسكر حتى ينسى نفسه، وغلبه الفناء أي كونه يفني نفسه في ربه ولا يحصل له تمييز بين الخالق والمخلوق نسأل الله السلامة والعافية، وهذه أحوال الصوفية.

وقوله يسقط فيها: وإذا سقط التمييز صار مجنونًا ورفع عنه القلم لأنه ما يعقل.

وقوله ولهذا كان: إذا صحا وزال عنهم السكر زالت عنه الغيبوبة استغفر.

وقوله والذين توسعوا: فمن جهلهم أنهم يتوسعون في سماع القصائد التي تتضمن الحب والشوق واللوم والعذل والغرام، يتعبدون لله بسماع القصائد والغناء، الذي فيها الشوق والحب واللوم والغرام ويجعلون ذلك عبادة.

وقوله فإن هذا: وهذه الآية تسمى آية المحنة والاختبار ادعى أناس أنهم يحبون الله فاختبرهم، فأخبر الله أن ميزان ذلك اتباع الرسول فمن ينطبق عليه

---

(١) سورة آل عمران: آية ٣١.

kutub-pdf.net

فلا يكون محبًا لله إلا من يتبع رسوله.

وطاعة الرسول ومتابعته لا تكون إلا بتحقيق العبودية. وكثير ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته ﷺ، ويدعي من الحالات ما لا يتسع هذا الموضوع لذكره. حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له، وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسنته وطاعته. بل قد جعل الله أساس محبته ومحبة رسوله، الجهاد في سبيل الله. والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهى الله عنه. ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[(١)].

الميزان فهو محب لله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾، فمن اتبع الرسول فهو صادق في المحبة، ومن خالف الرسول ﷺ فهو كاذب في الصحبة واتباع الرسول ﷺ بالتزام ما جاء به من الشريعة فامتثل أوامر الله وأخلص أعماله لله، وأخلص الدين لله، وأدى فرائض الله، وانتهى عن محارم الله، ووقف عند حدود الله واستقام على دين الله، فمن كان كذلك فهو صادق في محبته ومن خالف ذلك فهو كاذب.

وقوله **فلا يكون محبًا**: يعني: أنه يظن أنه من الخاصة، إذا وصل إلى مرتبة العلم وإلى حالة يلغى صفاته ويجعلها لله ويلغى أفعاله ويجعل الأفعال لله صار من الخاصة وسقط عنه الأمر والنهي ما عليه أوامر ولا نواهي ولا طاعات ولا معاصي وصل إلى الله ويستدل بقول الله سبحانه وتعالى **﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾** يفسرون اليقين بالعلم، فالخاصة وصلوا إلى العلم ولا يكون عندهم تكاليف لا أوامر ولا نواهي، لا طاعات ولا معاصي، كل ما يفعلونه فهو مباح لهم نعوذ بالله، ومن اعتقد هذا فهو مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل.

وقوله: **جعل اساس محبته**: نعم الجهاد في سبيله هو أساس المحبة لأن المجاهد يبذل نفسه وماله لله عز وجل، والدعوة إلى دينه، فهو يقاتل ويبذل مهجته ويبذل نفسه لإعلاء كلمة الله، وهذا هو الأصل وأساس المحبة لله

---

(١) سورة المائدة: ٥٤.

kutub-pdf.net

ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم.

وأكمل هذه الأمة في ذلك هم أصحاب محمد ﷺ، ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل.

ولرسوله، وهذه هي المحبة لله حقيقة.

وقوله ولهذا كانت: بين المؤلف رحمه الله أن محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها من الأمم وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم من الأمم، وما ذاك إلا لأن نبي هذه الأمة أفضل الأنبياء، وهذه الأمة أفضل الأمم.

فنبينا محمد ﷺ أكمل الناس محبة له، وهوأكملهم عبودية له، وهذه الأمة أكمل الأمم محبة لله وأكملهم عبودية لله عز وجل.

وقد بين المؤلف رحمه الله أن اتباع الشريعة والجهاد في سبيل الله من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه وبين من يدعي المحبة، وقد سبق قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ تسمى آية المحنة، فقد ادعى قومًا محبة الله فامتحنهم الله بهذه الآية. وبين المؤلف رحمه الله أن الدين الحق تحقيق العبودية لله بكل وجه، وهو تحقيق محبة الله وأن كل عمل لا يوافق شرع الله فإنه لا يكون لله، ولا يكون لله إلا ما جمع الوصفين أن يكون لله وأن يكون موافقًا لمحبة الله ورسوله، وبين المؤلف رحمه الله أن الشرك غالب على النفوس وكما في الحديث أنه أخفى من دبيب النمل، وأن من الشرك الخفي اتباع الهوى مثل محبة المال ومحبة الجاه ومُحبة الصور إلى غير ذلك، وخلاصة ما سبق أن المؤلف بين الحديث الذي فيه أن حرص الإنسان على المال والشرف لا ينقص في إفساد الدين عن إفساد الذئبين الجائعين اللذين أرسلا في

kutub-pdf.net

....

زريبة غنم. وبين المؤلف رحمه الله أن إبراهيم وآل إبراهيم عليهم الصلاة والسلام هم أئمة الحنفاء ونبينا ﷺ من آل إبراهيم، وأن فرعون وآل فرعون هم أئمة الكفر والضلال، ومنهم الاتحادية الذين يقولون إن الوجود واحد، وهم على دين فرعون وعلى مذهب فرعون، ثم بين المؤلف رحمه الله مسألة الفناء، وتقسيم الناس للفناء عند الصوفية، والفناء كلمة يعنون بها تجريد شهود الحقيقة الكونية والغيبة عن شهود الكائنات، ويقسمونها إلى ثلاث أقسام: الفناء عن وجود السوى، والفناء عن شهود السوى، والفناء عن مراد السوى، فالفناء عن وجود السوي يفنى عن وجود ما سواه، وأصل كلمة الفناء في اللغة عند الإنسان يفنى مادة في مادة، فإذا وضعت الدقيق في ماء ثم ذاب صار مادة أخرى، تفنى مادة في مادة.

واصطلح الصوفية على أن المراد بالفناء هو تجريد شهود الحقيقة الكونية والغيبية عن شهود الكائنات، فالفناء عن وجود السوى معناه أن ينكر ما سوى الله، هذا هو مذهب الاتحادية القائل بوحدة الوجود يفنون المخلوق في الخالق فليس هناك خالق ولا مخلوق بل الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق، هذا فناء الملاحدة.

والثاني الفناء عن شهود السوى: بمعنى أنه يغيب عن المخلوقات ولا ينظر إلا إلى الله لئلا تشوش عليه طريقه وسلوكه إلى الله، فهذا ما ينكر المخلوقات وإنما ينكره من الشهود ولا ينكره من الوجود حتى لا تشوش عليه وتحصل لبعضهم غيبة ويسمون هذا اصطلام وسكر ومحو وجمع. وقد يقوي شهود القلب وتقوى الغيبوبة عند بعضهم حتى ينسى كل شيء وينسى نفسه ولا ينظر إلا إلى محبوبه حتى يظن أنه اتحد بمحبوبه وامتزج به، ومن ذلك أن بعض

kutub-pdf.net

فأين هذا من قوم يدعون المحبة.

وفي كلام بعض الشيوخ: المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب.

وأرادوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده. فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء، حتى الكفر والفسوق والعصيان!! ولا يمكن أحد أن يحب كل موجود، بل يحب ما

المحبين من شدة ولعه بمحبوبه صار كأنه مغناطيس يجذبه فلما سقط المحبوب في الماء سقط وراءه، قال أنا سقطت ما الذي أوقعك في الماء؟ قال: غبت بك عني فظننت أنك أبي، جذبتني ما استطيع أنا في غيبوبة غبت بك عني فظننت أنك أنا.

وأما الثالث: الفناء عن مراد السوى، بمعنى أنه يلغي مراد نفسه لمراد الله فيقدم محبة الله على محبة النفس ويقدم مراد الله ومحبوبات الله على مراد النفس ومحبوبتها وشهواتها، وهذا فناء خواص الأولياء والمقربين، يقول شيخ الإسلام رحمه الله إن كان هناك فناء صحيح فهو هذا الفناء، ومن ذلك كلمة التوحيد لا إله إلا الله فيها فناء وبقاء، فالفناء لا إله تفنى ما سوى الله يعني تنفي ما سوى الله من العبودية وإلا الله وتبقي الله سبحانه وتعالى فهو المعبود بالحق.

وقوله فأين هذا: يعني يدعون المحبة من دون عمل؛ من اتباع لرسول الله ﷺ، وجهاد في سبيل الله، وعلى ذلك فهذه الدعاوي لا تنفع فلا بد لكل دعوى من دليل، ولهذا من ادعى محبة الله فليعمل بقول الله تعالى ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ لأنها تُسمى آية المحنة أي الامتحان والاختبار، فإذا قال إنسان: أنا أحب الله، نقول له عندنا امتحان نختبرك به بأن ننظر عملك إن كنت متبعًا للرسول فأنت صادق وإن كنت لا تتبع الرسول فأنت كاذب في دعواك.

kutub-pdf.net

يلائمه وينفعه، ويبغض ما ينافيه ويضره، ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع أهوائهم، ثم زادهم انغماسًا في أهوائهم وشهواتهم، فهم يحبون ما يهوونه، كالصور، والرئاسة، وفضول المال، والبدع المضلة، زاعمين أن هذا من محبة الله، ومحبة الله بغض ما يبغضه الله ورسوله، وجهاد أهله بالنفس والمال.

وأصل ضلالهم: أن هذا القائل الذي قال: إن المحبة نار تحرق ما سوى مراد المحبوب، قصد بمراد الله تعالى: الإرادة الكونية في كل الموجودات.

أما لو قال مؤمن بالله وكتبه ورسله، هذه المقالة، فإنه يقصد الإرادة الدينية الشرعية التي هي بمعنى محبته ورضاه، فكأنه قال: تحرق من القلب ما سوى المحبوب لله.

هذه الكلمة صدرت من بعض شيوخ الصوفية، المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب، ووجه الغلط في ذلك أنه أراد بهذه الإرادة الإرادة الكونية، القدرية وكل شيء في الوجود قد أراده الله كونه قدرًا لا يقع في ملك الله إلا ما يريد، لكن الأشياء التي أرادها كونا وقدراً بعضها يحبها وبعضها يكرهها، إذ هناك إرادة ثانية تسمى الإرادة الدينية الشرعية، فالذي وقع في الكون من الكفر والفسوق والعصيان أراد الله كونه قدراً، لكن الله لا يرضاه دينا وشرعًا فهو مراد بالإرادة الكونية لما في ذلك لله من الحكم والأسرار لكنه ليس مرادًا للإرادة الدينية الشرعية، فهؤلاء الشيوخ أو الصوفية ظنوا أن المراد بالإرادة الكونية القدرية محبوب لله مطلقًا فلما رأوا أن الكفر والفسوق والعصيان كلها وقعت قالوا هذه مراده لله محبوبة ولم يفرقوا بين الإرادة الكونية والإرادة الدينية، وهذا وجه الغلط، والصواب أن يفرق بين الإرادتين، فهناك إرادتان إرادة كونية قدرية هذه لا يتخلف مرادها بل يقع بها كل شيء أراده الله، فكل شيء وقع في هذا الوجود فهو داخل تحت الإرادة الكونية لكن بعد ذلك ينقسم إلى قسمين: قسم مراد لله بالإرادة الدينية الشرعية وهو ما أمر به الله

kutub-pdf.net

وهذا معنى صحيح، فإن من تمام الحب لله أن لا يحب إلا ما يحبه الله، فإذا أحببت ما لا يحب، كانت المحبة ناقصة وأما قضاؤه وقدره فهو يبغضه ويكرهه ويسخطه وينهي عنه، فإن لم أوافقه في بغضه وكراهته وسخطه، لم أكن محبًا له، بل محبًا لما يبغضه.

فاتباع هذه الشريعة والقيام بالجهاد بها من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه، وبين من يدعي محبة الله ناظرًا إلى عموم ربوبيته، أو متبعًا لبعض البدع المخالفة لشريعته، فإن دعوى هذه المحبة لله من جنس دعوى اليهود والنصارى المحبة لله بل قد تكون دعوى هؤلاء شرًا من دعوى اليهود والنصارى، لما فيهم من النفاق الذي هم به في الدرك الأسفل من النار. كما قد تكون دعوى اليهود والنصارى شرًا من دعواهم إذا لم يصلوا إلى مثل كفرهم.

ورضي به وأحبه شرعًا وقسم ليس مرادًا لله، فلو قال هذا القائل: المحبة نار تحرق في القلب ما سوىٰ مراد المحبوب، وأراد الإرادة الدينيةفالعبارة صحيحة لكن إذا أراد الإرادة الكونية فقد أخطأ:

وقوله فاتباع هذه: يعني من يدعي محبة الله نظرًا إلىٰ عموم الربوبية من جنس دعوة اليهود والنصارىٰ أنهم أبناء الله وأحباؤه، هذه دعوة ولهذا قال الله تعالىٰ ردًا عليهم ﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلما يعذبكم**﴾ إذا كنتم أحبا ب الله فاتبعو شرعه واتبعوا رسوله.

وقوله بل قد تكون: هذا من إنصاف المؤلف رحمه الله، يقول: إن دعوىٰ بعض الصوفية الذين يدعون محبة الله وهم منحرفون في العبادة ولا يتبعون شرع الله من جنس دعوىٰ اليهود أنهم أحباب الله ولا يتبعون رسول الله، لكن أيّهم أشر هل الصوفية أشر من اليهود والنصارىٰ أم اليهود والنصارىٰ أشر، قال المؤلف: إذا كان هؤلاء الصوفية الذين يدعون محبة الله منافقون وصلوا إلىٰ الشرك الأكبر يكونوا أشر من اليهود والنصارىٰ، أما إذا كانوا لم

kutub-pdf.net

وفي التوراة والإنجيل من الترغيب في محبة الله ما هم متفقون عليه، حتى إن ذلك عندهم أعظم وصايا الناموس.

ففي الإنجيل (أعظم وصايا المسيح: «أن تحب الله بكل قلبك وعقلك ونفسك).

والنصارى يدعون قيامهم بهذه المحبة، وأن ما هم فيه من الزهد والعبادة هو من ذلك، وهم برآء من محبة الله، إذ لم يتبعوا ما أحبه، بل ﴿ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾(١).

والله يبغض الكافرين ويمقتهم ويلعنهم، وهو سبحانه يحب من يحبه. لا يمكن أن يكون العبد محبًا لله، والله تعالى غير محب له، بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له، وإن كان جزاء الله لعبده أعظم. كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله تعالى أنه قال: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»(٢).

وقد أخبر الله سبحانه أنه يحب المتقين، والمحسنين، والصابرين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، بل هو يحب من فعل ما أمر به من واجب ومستحب، كما في الحديث الصحيح: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره

يصلوا إلى درجة الشرك الأكبر فيكون اليهود والنصارى أشر منهم، وبعض الصوفية منافق زنديق، والمنافق في الدرك الأسفل من النار فيكون شراً من اليهود والنصارى، لأن المنافقين في دركة في النار تحت دركة اليهود والنصارى فيكون أشر، أما إذا كان نفاقهم لا يصل إلى حد الشرك الأكبر فيكون اليهود والنصارى أشر منهم، وهذا من إنصاف المؤلف رحمه الله تعالى.

---

(١) سورة محمد: آية ٢٨.

(٢) رواه البخاري [١٣/ ٣٢٥] ومسلم [٢٦٧٥].

kutub-pdf.net

الذي يصرّ به»[1] ... الحديث.

وكثير من المخطئين الذين ابتدعوا أشياء في الزهد والعبادة وقعوا في بعض ما وقع فيه النصارى من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته، وترك المجاهدة في سبيله، ونحو ذلك، ويتمسكون في الدين الذي يتقربون به إلى الله بنحو ما تمسك به النصارى من الكلام المتشابه، والحكايات التي لا يعرف صدق قائلها، ولو صدق لم يكن قائلها معصومًا، فيجعلون متبوعيهم شارعين لهم دينًا، كما جعل النصارى قسيسيهم ورهبانهم شارعين لهم دينًا. ثم إنهم ينتقصون العبودية، ويدعون أن الخاصة يتعدونها. كما يدعي النصارى في المسيح والقساوسة، ويثبتونه لخاصتهم من المشاركة في الله، من جنس ما تثبته النصارى في المسيح وأمه والقسيسين والرهبان إلى أنواع أخر يطول شرحها في هذا الموضع.

وقوله وكثير من المخطئين: يعني أن بعض الصوفية يشابهون النصارىٰ في أن كلاً منهم يدعي محبة الله ووجه الشبه بينهما أن كلاً من النصارىٰ والصوفية يدعي محبة الله مع كونه يخالف شرع الله ويترك الجهاد في سبيل الله ويتمسكون بما تمسك به النصارىٰ من كلام متشابه ومن حكايات لا تعرف للنصارىٰ يتمسكون بها وكلام متشابه، والصوفية عندهم حكايات، ولو صدق هذا القائل فليس هو بمعصوم مثل الأنبياء، يحكىٰ عن فلان كذا وكذا عبد الله الصالح فعل كذا و كذا عبد الله الصالح حصل له كرامات، فيجعلون متبوعيهم مشرعين لهم من دون الله، كما أن النصارىٰ يجعلون قسيسهم كذلك شارعين لهم أشياء يتعدون بها شريعة الله.

---

(١) انظر: السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني [٤/ ١٨٣ ـ ١٩٣].

kutub-pdf.net

وإنما الدين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة، وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه، وتكمل محبة الرب لعبده. وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا وكلما كان في القلب حب لغير الله، كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك. وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك.

وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل. فالدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان لله[(١)] ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله، وهو المشروع.

فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون لله إلا ما جمع الوصفين.

أن يكون لله.

وأن يكون موافقًا لمحبة الله ورسوله.

وقوله إنما الدين الحق: هكذا يكون الدين الحق تحقيق العبودية لله بكل وجه، وتحقيق العبودية لله هو تحقيق محبة الله، فمن حقق عبودية الله فقد حقق محبة الله، ومن نقص تحقيقه للعبودية نقصت محبته لله، وبقدر تكميله للعبودية تكن محبة الله وبقدر نقصه من العبودية تنقص محبته لله وهكذا، وبهذا يتبين أن دعوىٰ محبةالله من غير ذلك لا يعول عليها ولا تفيد صاحبها إذ لا بد من الدليل علىٰ الدعوىٰ، والدليل تحقيق عبودية الله.)

قوله إلا ما جمع الوصفين: وهذان الوصفان هما أصل الدين، وهما أن يكون لله. وهذا هو الإخلاص لله وهو تحقيق شهادة ألا إله إلا الله، وأن يكون موافقًا لمحبة الله ورسوله، وهذا الأصل الثاني، وهو أن يكون عمله موافقا لشرع الله وهو تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله، فلا يصلح أي عمل إلا

---

(١) وقد صح هذا المعنىٰ مرفوعاً عن النبي ﷺ رواه الترمذي [٢٣٢٣] وابن ماجه [٤١١٢].

kutub-pdf.net

وهو الواجب والمستحب، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1].

فلا بد من العمل الصالح، وهو الواجب والمستحب، ولا بد أن يكون خالصًا لوجه الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

وقال النبي ﷺ : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[3].

وقال النبي ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها

بهذين الأمرين، أن يكون العمل خالصا لله، وأن يكون موافقًا لشرع الله، ولا يصح إلا بهما. والأدلة على هذا كثيرة كما سيذكر المؤلف.

وقوله وهو الواجب: فالعمل الصالح هو الموافق لشرع الله، ﴿ وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهذا هو الإخلاص لله.

وقوله فلا بد: الآية فيها الأصلان ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ هذا إخلاص العمل لله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ هذا الموافق لشرع الله، فالعمل الحسن الموافق لشرع الله.

وقوله من عمل عملاً: هذا يقرر الأصل الثاني وهو تحقيق شهادة أن محمد رسول الله، وهو أن يكون العمل موافقًا لشرع الله، وفي الصحيحين (**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**).

وقوله إنما الأعمال: هذا أيضًا يحقق الأصل الأول وهو أن يكون العمل لله «إنما الأعمال بالنيات»، الأعمال لا تصح إلا بالنيات، والأعمال تبنى على

---

(١) سورة الكهف: آية ١١٠.

(٢) سورة البقرة: آية ١١٢.

(٣) رواه البخاري [٢٦٩٧] ومسلم [٧١٨].

kutub-pdf.net

فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١).

وهذا الأصل هو أصل الدين، وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين، وبه أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وإليه دعا الرسول، وعليه جاهد، وبه أمر، وفيه رغب، وهو قطب الدين الذي يدور عليه رحاه.

والشرك غالب على النفوس، وهو كما جاء في الحديث: «هو في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل»(٢) «وفي حديث آخر: «قال أبو بكر: يا رسول الله، كيف ننجو منه، وهو أخفى من دبيب النمل؟ فقال النبي ﷺ لأبي بكر: ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجله. قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»(٣). وكان عمر يقول في دعائه: اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

وكثيرًا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له، وإخلاص دينها له، كما قال شداد بن أوس. يا نعايا العرب! يا نعايا العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية(٤).

وقيل لأبي داود السجستاني. وما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة.

وعن كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد

النيات فإن كانت النية خالصة لله صح العمل.

وقوله: وهذا أصل الدين وأصل الملة، وهو أن يكون العمل خالصًا لله، ثم أيضا لا بد أن يكون موافقًا لشرع الله حتى لا يكون فيه بدع وأهواء.

---

(١) أخرجه البخاري (١)، (٥٤)، [٢٥٢٩] ومسلم [١٩٧] عن عمر رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) وقد صح هذا مرفوعًا رواه البيهقي في الزهد [ص ٣١٩] وأبو نعيم في الحليله [٧/ ١٢٢].

kutub-pdf.net

لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه[١]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. فبين ﷺ أن الحرص على المال والشرف، في إفساد الدين، لا ينقص عن إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم.

وذلك يبين أن الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص، وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبودية الله ومحبته له، لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه، وبذلك يصرف ـ عن أهل الإخلاص لله ـ السوء والفحشاء، كما قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٢]. فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه

وقوله أن الحرص: يبين النبي ﷺ في هذا الحديث أن حرص الإنسان على المال وحرصه على الجاه والشرف والمنصب يفسد دينه كما يفسد الذئبان الجائعان الذان أُرسلا في زريبة غنم، فإنك لو أرسلت ذئبين جائعين على حظيرة غنم، فإنهما لا يتركانها بل لا بد أن يشقا بطونهما كلهما يأكلان ما يأكلان والباقي يتركانه فاسداً، فالذئب من طبيعته الإفساد، فكيف إذا كانا ذئبين جائعين مضى عليهما مدة ما آكلا ثم أطلقتهما في زريبة غنم، فإنهما لا بد أن يأتيها على هذه الغنم أكلاً وإفساداً، فحرصُ الإنسان على المال وحرصه على الشرف والجاه والمنصب يفسد دينه مثل ما يفسد هذان الذئبان الجائعان الغنم إذا أُرسلا لزريبتها، والحديث فيه تقديم وتأخير، والمعنى ما ذئبان جائعان أرسلا في حظيرة والحظيرة المكان الذي تكون فيه الغنم، أرسلا في حظيرة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف، أي أن الإفساد من حرص المرء على المال والشرف والجاه لدين الرجل أفسد من إفساد هذين الذئبين.

---

(١) رواه أحمد [٣/ ٤٥٦ و ٤٦٠] والترمذي [٢٤٨٢] والنسائي كما في تحفة الأشراف [٩/ ٣١٦].

(٢) سورة يوسف آية ٢٤.

kutub-pdf.net

عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره، إذ ليس عند القلب السليم أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له، وإخلاصه الدين كله له.

وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيبًا إلى الله، خائفًا منه، راغبًا راهبًا، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[1]. إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه، أو حصول مرهوبه، فلا يكون عبد الله ومحبه، إلا بين خوف ورجاء، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[2].

وقوله وذلك يقتضي: هذه المحبة الصادقة يلزم منها الخوف والرجاء، فالإنسان يعبد الله بالمحبة والخوف والرجاء، لكن ما يقوله بعض الزنادقة من الصوفية أعبد الله بالحب وحده، وهذا خطأ، وبعض المرجئة يقول: أعبد الله بالرجاء، وكبعض الخوارج يعبد الله بالخوف، ولا يكون عبد الله على الحقيقة حتى يكون محبا لله خائفًا راجيًا، والخوف والرجاء لا بد منهما وكل محب فهو خائف وكل خائف فهو راج وكل راج فهو خائف، لأن المحب يخاف من زوال مطلوبه، ويخاف من حصول مرهوبه، فلا بد له من الأمرين كما قال الله تعالى عن عباده ورسله ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبا﴾، وكما في قوله سبحانه ﴿يدعوننا خوفًا وطمعا﴾، وكما في أول سورة الفاتحة فيها المحبة والخوف والرجاء، وفي أركان العبادة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا هو الركن الأول وهو المحبة، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هذا الركن الثاني وهو الرجاء، ترجو رحمة الله من الرحمن، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهذا الركن الثالث وهو الخوف،

---

(١) سورة ق: آية ٣٣.

(٢) سورة الإسراء: آية ٥٧.

kutub-pdf.net

وإذا كان العبد مخلصًا لله اجتباه ربه، فأحيى قلبه واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإن فيه طلبًا وإرادة وحبًا مطلقًا، فيهوي كل ما يسنح له ويتشبث بما يهواه، كالغصن، أي نسيم مر به عطفه وأماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة، وغير المحرمة فيبقى أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك عيبًا ونقصًا وذمًا.

وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة، وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله.

ومن لم يكن مخلصًا لله، عبدًا له، قد صار قلبه معبدًا لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلاً له خاضعًا، وإلا استعبدته الكائنات.

والتخوف من يوم القيامة، ثم بعد ذلك ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فهذه أركان العبادة كلها ذكرت في مطلع سورة الفاتحة.

وقوله **وإذا كان العبد**: وسبب ذلك أن هذا القلب الذي لم يخلص لله حصل فيه نقص عظيم، فلما حصل فيه نقص حصلت، هذه العبودية، فالعبودية لغير الله تنقص الإخلاص، فإذا نقص الإخلاص حل محله العبودية لغير الله، عبودية للصور وعبودية للشرف، وعبودية للدرهم والدينار، وعبودية للهوىٰ، فإذا أخلص الإنسان عمله لله لم يحصل له نقص في العبودية لله.

وقوله **ومن لم يكن مخلصًا**: أي من لم يكن قلبه معبّدًا لله صار قلبه معبّدا لغير الله من المخلوقات ولا بد، فالقلب لا يكون فيه فراغًا إما فيه عبودية لله أو عبودية لغير الله، فإذا كانت العبودية لله كاملة ما صار فيه محل لعبودية غير الله، وإذا كانت العبودية لله ناقصة حل محلها عبودية لغير الله، كالمشرك،

kutub-pdf.net

واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله. وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه.

فالقلب إن لم يكن حنيفا مقبلاً على الله معرضًا عما سواه، كان مشركًا: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[1].

خلا قلبه من عبودية الله فحلّ محلّها عبودية غير الله حتى ولو عبد الله وهو يعبد غيره فلا يفيده، والمخلصون الذين أخلصوا لله هؤلاء ليس فيهم عبودية لغير الله. ومن الناس من تنقص عبوديته لله فيحل محلها عبودية لغير الله، والناس في هذا يتفاوتون تفاوتا عظيما على حسب إخلاصهم وعلى حسب أعمالهم وعلى حسب الشرك الذي يحل في قلوبهم، والمراد الشرك الأصغر والمعاصي وغيرها، ليس المراد الشرك الأكبر لأن الشرك الأكبر زال التوحيد والإخلاص، فإنهما لا يجتمعان في القلب، ولكن من الممكن أن يجتمع في القلب عبودية لله وعبودية لغير الله لكن فيما هو دون الشرك الأكبر، أما الشرك الأكبر فلا يجتمع في القلب مع التوحيد والإخلاص، بل هما ضدان إذا وجد أحدهما زال الآخر، فإذا وجد التوحيد والإخلاص فلا يجتمعان، لكن الشرك الأصغر مع التوحيد أو المعاصي مع التوحيد يجتمعان.

وقوله فالقلب إن لم يمكن: هذا أمر ضروري لا حيلة فيه، فلا يمكن أن يكون القلب فارغًا، فمن لم يكن حنيفا مقبلا على الله معرضا عما سواه صار مشركًا، وليس هناك بين بين إلا كما سبق المعاصي والشرك الأصغر فقد تجتمع في القلب مع توحيد الله لكنها تضعف التوحيد والإخلاص.

---

(١) سورة الروم: آية ٣٠ ـ ٣٢.

kutub-pdf.net

وقد جعل الله سبحانه إبراهيم وآل إبراهيم أئمة لهؤلاء الحنفاء المخلصين أهل محبة الله وعبادته، وإخلاص الدين له.

كما جعل فرعون وآل فرعون أئمة المشركين المتبعين أهواءهم.

قال تعالى في إبراهيم ﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين. وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾(١).

وقال في فرعون وقومه: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون. وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾(٢).

ولهذا يصير أتباع فرعون أولاً إلى أنهم لا يميزوا بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما قدره الله وقضاه، بل ينظرون إلى المشيئة المطلقة الشاملة، ثم في آخر الأمر لا يميزون بين الخالق والمخلوق، بل يجعلون وجود هذا وجود هذا.

وقوله وقد جعل الله: ونبينا محمد ﷺ من آل إبراهيم، فآل إبراهيم، مقدمهم محمد وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام ثم سائر الأنبياء كلهم أئمة للناس.

وقوله وجعلناهم أئمة: الشاهد في قوله (**وجعلناهم أئمة**) أي أئمة هدىٰ.

وقوله قال في فرعون وقومه: الشاهد (وجعلناهم أئمة) أي أئمة ضلال، فإبراهيم وآل إبراهيم أئمة هدىٰ، وفرعون وآل فرعون أئمة ضلال.

وقوله ولهذا يصير أتباع: هؤلاء أتباع فرعون فهم أولا لا يميزون بين القدر وبين الشرع، لا يميزون بين ما قدره الله وما شرعه الله، أي لا يميزون بين القدر

---

(١) سورة الأنعام: الآيات: ١٥٧ - ١٥٩.

(٢) سورة القصص آية ٤١ - ٤٢.

kutub-pdf.net

ويقول محققوهم: الشريعة فيها طاعة ومعصية، والحقيقة فيها طاعة بلا معصية، والتحقيق ليس فيه طاعة ولا معصية.

وهذا تحقيق مذهب فرعون وقومه الذين أنكروا الخالق، وأنكروا تكليمه لعبده موسى،وما أرسله به من الأمر والنهي.

وبين الشريعة، فيقولون كل ما قدره الله من الزنا ومن السرقة وغيرها يحبه ويرضاه، يقولون هذه قدرها الله إذاً يحبها الله، لا فرق عندهم بين القدر وبين الشريعة أعرضوا عن الشريعة، ثم بعد ذلك في نهاية الأمر يصلون إلىٰ أنهم لا يفرقون بين الخالق والمخلوق، يقولون المخلوق هو الخالق والخالق هو المخلوق فكل شيء تراه هو الله لا يميزون، فيصلون إلىٰ القول بوحدة الوجود الذي هو النهاية والغاية في الكفر والعياذ بالله.

وقوله **ويقول محققوهم**: هذا هو تقسيم الصوفية للناس؛ يقسمون الناس إلىٰ ثلاث طبقات، الشريعة فيها طاعة ومعصية، الشريعة لمن؟ يقولون: الشريعة للعامة، فهم يقّسمون الناس إلىٰ عامة وخاصة وخاصة خاصة، العامة هم أهل الشريعة عندهم طاعات ومعاصي، ومن العامة عندهم جميع الأنبياء والمرسلين يسمونهم عامة لأن عندهم طاعات ومعاصي، أما الخاصة فليس عندهم معاصي كل ما يصدر منهم فهو طاعات ولو صدر الزنا يكون طاعة أو السرقة تكون طاعة، أو شرب الخمر يكون طاعة، لا توجد المعاصي عندهم، ولكن المعاصي عند أهل الشريعة أما أهل الحقيقة فلا لأنهم ألغوا صفاتهم وأفعالهم وجعلوها صفات لله فصار كل ما يصدر من الواحد يعتبره طاعة حقاً كان أو باطلاً حتىٰ الكفر والعياذ بالله.

ثم الطبقة الثالثة: خاصة الخاصة ليس عندهم معاصي ولا طاعات لأنهم وصلوا إلىٰ القول بوحدة الوجود، صار الوجود واحداً هو الرب وهو العبد فلا

kutub-pdf.net

طاعات ولا معاصي، الطاعات والمعاصي عند أهل الشريعة، وأما أهل الحقيقة فليس عندهم إلا طاعات بدون معاصي، وأهل التحقيق هم خاصة الخاصة فليس عندهم لا طاعات ولا معاصي لأنهم وصلوا إلى القول بوحدة الوجود وهو غاية الكفر نعوذ بالله.

kutub-pdf.net

فصل في الفرق بين الخالق والمخلوق

وأما إبراهيم وآل إبراهيم الحنفاء من الأنبياء والمؤمنين بهم، فهم يعلمون أنه لا بد من الفرق بين الخالق والمخلوق، ولا بد من الفرق بين الطاعة والمعصية، وأن العبد كلما ازداد تحقيقًا لهذا الفرق، ازدادت محبته لله وعبوديته له، وطاعته له، وإعراضه عن عبادة غيره ومحبة غيره، وطاعة غيره.

وهؤلاء المشركون الضالون يسوون بين الله وبين خلقه.

والخليل يقول: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

ويتمسكون بالمتشابه من كلام المشايخ كما فعلت النصارى. مثال ذل: اسم «الفناء» فإن الفناء ثلاثة أنواع:

نوع للكاملين من الأنبياء والأولياء.

ونوع للقاصدين من الأولياء والصالحين. ونوع للمنافقين الملحدين المشبهين.

وقوله: وهؤلاء المشركون الضالون: هم الاتحادية يسوون بين الله وخلقه، ويجعلون الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق.

وقوله والخليل يقول: فالخليل عليه الصلاة والسلام فرق وجعل ما يعبدون من دون الله عدواً له، وجعل محبوبه وخليله هو رب العالمين.

الشرح: هذا اسم الفناء مصطلح قاله بعض مشايخ الصوفية، وأصل الفناء في اللغة كما أسلفنا إفناء احدىٰ المادتين في الأخرىٰ مثل الدقيق والطحين إذا

---

(١) سورة الشعراء: آية ٧٥ ـ ٧٧.

kutub-pdf.net

فأما الأول: فهو الفناء عن إرادة ما سوى الله.

بحيث لا يحب إلا الله، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يطلب من غيره.

وضعتها في الماء فنيت إحدىٰ المادتين، فصارت مادة واحدة، هذا معناه في اللغة، أما مصطلح الصوفية في الفناء فهو تحقيق شهود الحقيقة الكونية والغيبة عن شهود الكائنات، الحقيقة الكونية ربوبية الله الشاملة ككل شيء ومشيئته النافذة والغيبة أي يغيب ويتناسىٰ ما سوىٰ الله من المخلوقات فلا يشهدها، ليس لها وجود بل يتناساها حتىٰ لا تشوش عليه ويجعلون الفناء ثلاثة أقسام.

النوع الأول: نوع للكاملين من الأنبياء والأولياء وهو الفناء عن مراد السوي بمعنىٰ أنك تلغىٰ مرادك لمراد الله، وتلغىٰ ما تريده ترغبه نفسك لمراد الله، بمعنىٰ أنك تقدم مراد الله ومحبة الله علىٰ مراد نفسك، تحب ما يحبه الله وتبغض ما يبغضه الله وتوالي من يوالي الله وتعادي من يعادي الله وتعطي لله وتمنع لله وتخاف الله، فيكون دينك ومحبتك لله، فإن كان هناك اسم صحيح للفناء فهذا هو الاسم الصحيح، فيكون هذا الفناء عن مراد السوي معنىٰ صحيح، ويكون هذا للكاملين من الأنبياء والأولياء لأنهم ألغوا مرادهم لمراد الله. لكن تسميته فناء هذا اصطلاح ومثل كلمة التوحيد لا إله إلا الله فيها فناء وبقاء، لا إله هذا نفي، إلا الله هذا بقاء، فأنت تُنفي من لم يكن وهو المخلوق وتُبقي من لم يزل وهو الله، بمعنىٰ أنك تنفي عبودية ما سوىٰ الله وتثبت العبودية لله.

النوع الثاني، نوع للقاصرين من الأولياء والصالحين، وهو الفناء عن شهود السوىٰ بمعنىٰ أن يتناسىٰ ما سوىٰ الله من الشهود ولا يذكره حتىٰ لا يشوش عليه مراده فهذا نوع للقاصرين. **والنوع الثالث** نوع للكافرين الملاحدة و الزنادقة وهو الفناء عن وجود السوىٰ، بمعنىٰ أنه ينكر ما سوىٰ الله، فيقول ليس هناك إلا وجود واحد هو الخالق والمخلوق، وهذا فناء الملاحدة الاتحادية.

وقوله **فأما الأول**: هذا هو الفناء الصحيح، وتسميته فناء هذا علىٰ سبيل

kutub-pdf.net

وهو المعنى الذي يجب أن يقصد بقول الشيخ أبي يزيد حيث قال: أريد أن لا أريد إلا ما يريد، أي المراد المحبوب المرضي. وهو المراد بالإرادة الدينية.

وكمال العبد أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، ولا يحب إلا ما يحبه الله، كالملائكة والأنبياء والصالحين، وهذا معنى قولهم في قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]. قالوا: هو السليم مما سوى عبادة الله، أو مما سوى إرادة الله، أو مما سوى محبة الله، فالمعنى واحد.

وهذا المعنى إنْ سمي فناء، أو لم يسم، هو أول الإسلام وآخره، وباطن الدين وظاهره.

وأما النوع الثاني: فهو الفناء عن شهود السوى.

الاصطلاح.

وقوله وهو المعنى: أي أريد أن يكون مرادي موافقًا لمراد الله ومحبتي موافقة لمحبة الله هذا المعنى صحيح يقول المؤلف يجب أن يُحمل كلام أبي يزيد البسطامي على هذا فيكون كلامه صحيحاً، فهو يقول أريد إلا أريد إلا ما يريده الرب، فالذي يريده الرب أنا أريده، والذي لا يريده الرب فأنا لا أريده، فالله تعالى يريد من العبد أن يخلص عمله لله وأن يؤدي فرائض الله وأن ينتهي عن محارم الله، وأن يقف عند حدود الله، وأن يستقيم على دين الله، فأنا أريد هذا. والذي لا يريده الله لا أريده.

وقوله وكمال العبد :أي أن كونك توافق الله في محبوباته ومرضياته هذا هو باطن الدين وظاهره وهو دين الإسلام، سواء سميته فناء أو ما سميته فناء.

وقوله وأما النوع الثاني: فالنوع الأول الفناء عن مراد السوى، والثاني الفناء عن شهود السوى، والثالث الفناء عن وجود السوى، والسوى: المراد به: ما

---

(١) سورة الشعراء آية ٨٩.

kutub-pdf.net

وهذا يحصل لكثير من السالكين، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته، وضعف قلوبهم على أن تشهد غير ما تعبد، وترى غير ما تقصد، لا يخطر بقلوبهم غير الله، بل ولا يشعرون به. كما قيل في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا ﴾(١). قالوا: فارغًا من كل شيء إلا من ذكر موسى.

وهذا كثيراً ما يعرض لمن دهمه أمر من الأمور، إما حب، وإما خوف، وإما رجاء، يبقى قلبه منصرفًا عن كل شيء، إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه، بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره.

فإذا قوي على صاحب الفناء هذا، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن، وهي المخلوقات، العبد فمن سواه. ويبقى من لم يزل، وهو الرب تعالى.

والمراد فناؤه في شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها.

وإذا قوي هذا، ضعف المحب حتى يضطرب في تمييزه، فقد يظن أنه هو محبوبه، كما يذكر أن رجلاً ألقى نفسه في اليمّ، فألقى محبه نفسه خلفه. فقال: أنا وقعت، فما أوقعك خلفي؟ قال: عنيت بك عني، فظننت أنك أني.

سوىٰ الله .

وقوله وهذا يحصل لكثير: وكما سبق فإن الفناء عن شهود السوىٰ بمعنىٰ أن شهوده لله ينسيه ما سوىٰ الله، فهو ينسىٰ وجود الله بموجوده، وينسىٰ شهود الله بمشهوده، وينسىٰ ذكر الله بمذكوره، ينسىٰ ذكر الله والعبادة لأن قلبه مشغول بشهود مذكوره وهو الله، وهذا كما سبق نوعًا للقاصرين .

وقوله وإذا قوى هذا: هذا ومن قوة الشهود، من قوة التعلق بالمحبوب صار ينسىٰ نفسه، وصار ينجذب إليه كأنه مغناطيس إذا قام قام وإذا قعد قعد وإذا

---

(١) سورة القصص: آية ١٠ .

kutub-pdf.net

وهذا الموضع زلت فيه أقوام، وظنوا أنه اتحاد، وأن المحب يتحد بالمحبوب، حتى لا يكون بينهما فرق في نفس وجودهم.

وهذا غلط، فإن الخالق لا يتحد به شيء أصلاً، بل لا يمكن أن يتحد شيء بشيء، إلا إذا استحالا وفسدت حقيقة كل منهما، وحصل من اتّحادهما أمر ثالث، لا هو هذا ولا هذا، كما إذا اتحد الماء واللبن، والماء والخمر، ونحو ذلك.

ولكن يتحد المراد والمحبوب والمراد والمكروه، ويتفقان في نوع الإرادة والكراهة فيحب هذا ما يحب هذا ويبغض هذا ما يبغض هذا، ويرضى ما يرضى، ويسخط ما يسخط، ويكره ما يكره، ويوالي من يوالي ويعادي من يعادي.

وهذا الفناء كله فيه نقص.

وأكابر الأولياء، كأبي بكر وعمر، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، لم يقعوا في هذا الفناء، فضلاً عمن هو فوقهم من الأنبياء. وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة.

وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل وعدم التمييز لما يرد على القلب من أحوال الإيمان.

سقط سقط بسبب انجذاب القلب .

وقوله وأكابر الأولياء : الفناء عن شهود السوىٰ ما وقعوا فيه لأن المشاهدة هذه كلها نقص .

وكل هذا النقص ما حصل للأنبياء ولا للصحابة ولا لأكابر الأولياء ، لكن قد حصل لكثير من التابعين يصير عنده ضعف تمييز حتىٰ الغشيان والغيبوبة ، لكن الصحابة عندهم ثبات وقوة وكما قال الله توجل قلوبهم عند ذكر الله ﴿إذا ذكر الله وجلت قلوبه وتقشعر جلودهم﴾ ، ولكن ما يحصل لهم غيبوبة ، ولكن هذا النقص حصل لبعض العباد في البصرة إذا سمع أية سقط وأغمىٰ عليه فلا يكون عنده تمييز وإن كان هذا بغير استطاعته واختياره لكن من كان عنده ثبات وتجلد

kutub-pdf.net

فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم أو يحصل لهم غشي أو صعق أو سكر، أو فناء أو وله، أو جنون.

وإنما كان مبادى هذه الأمور في التابعين من عباد البصرة فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت: كأبي جهير الضرير، وزرارة بن أبي أوفى قاضي البصرة.

وكذلك صار في شيوخ الصوفية من يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه، كما يحكى نحو ذلك عن مثل أبي يزيد وأبي الحسن النوري وأبي بكر الشبلي. وأمثالهم، بخلاف أبي سليمان الداراني. ومعروف الكرخي، والفضيل بن عياض، بل وبخلاف الجنيد. وأمثاله ممن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم، فلا يقعون في مثل هذا الفناء والسكر ونحوه.

بل الكمل تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون به الأمورعلى ما هي عليه، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله، مدبرة بمشيئته، بل مستجيبة له قانتة له. فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيدًا وممدا لما في قلوبهم من إخلاص الدين، وتجريد التوحيد له، والعبادة له وحده لا شريك له.

فيقشعر جلده ويلين قلبه من ذكر الله فهذا أثبت ممن يغمىٰ عليه ولا يميز.

وقوله **فإن الصحابة**: هذه طريقة الكمل من عبادة الله ومقدمهم الأنبياء والرسل، ثم الصحابة والتابعون والأئمة والعلماء، كلهم ما يكون عندهم هذا الشهود الذي يقوله الصوفية بل تكون عقولهم سليمة ليس فيها سوىٰ محبة الله وإرادته ويميزون بين الخالق والمخلوق ويشهدون الخالق علىٰ أنه خالق متدبر، ويشهدون المخلوقات علىٰ أنها مخلوقة مدبرة مسبحة بقدس الله، ويتبصرون ويعتبرون بها وتكون مقوية لما في قلوبهم من إخلاص الدين، بخلاف الصوفية، فإنهم لضعفهم يقولون: أنا ما أتحمل مشاهده مخلوقات شمس وقمر وليل ونهار وسموات وأراضين كل هذه تشوش عليّ بل أنساها ولا أنظر إلا إلىٰ الله، وهذا ضعف وعدم ثبات لكن الصحابة والأئمة والعلماء يشهدون

kutub-pdf.net

وهذه هي الحقيقة التي دعا إليها القرآن، وقام بها أهل التحقيق الإيمان والكمل من أهل العرفان، ونبينا ﷺ إمام هؤلاء وأكملهم، ولهذا لما عرج به إلى السماوات وعاين ما هنالك من الآيات، وأوحى إليه ما أوحى من أنواع المناجاة، أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله، ولا ظهر عليه ذلك، بخلاف ما كان يظهر على موسى من التغشي صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

وأما النوع الثالث: مما قد يسمى فناء.

فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الرب والعبد، فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد الواقعين في الحلول والالتحاد،

الخالق، ويشهدون المخلوق ولا يكون هناك تشويش وهم أكمل، هذه هي الحقيقة التي دعا إليها القرآن والتي قام بها أهل التحقيق من الرسل والأنبياء والصحابة والتابعين. أما طريقة الصوفية ومسألة الشهود فهذه طريقة حصلت لهم بسبب ضعف قلوبهم وضعف تمييزهم وضعف إيمانهم فحصل لهم ما حصل.

وقوله **وهذه هي الحقيقة التي**: يبين المؤلف رحمه الله أن حال نبينا ﷺ أكمل من حال موسى ولا شك وكلاهما من أولى العزم، لكن نبينا محمد ﷺ هو أكمل أولى العزم ثم يليه جده إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثم يليه موسى، وموسى حصل له تغشى أما نبينا ﷺ رأى من الآيات العظيمة لما أسري به وعرج به إلى السموات السبع ورأى سدرة المنتهى وغشيه ما غشيه حُصل له أمور عظيمة ثم نزل بعد الإسراء والمعراج وحاله لم يتغير ولا ظهر عليه شيء لكمال ثباته عليه الصلاة والسلام.

الشرح: وهذا فناء الملاحدة وهو بأن يشهد ألا موجود إلا الله فيقول كل ما تراه هو الله، فالشمس يقولون هي الله، والقمر يقولون هي الله، والجدار هو الله، فهذه مظاهر لتجلى الحق يتجلى في صورها والتعدد، هكذا يقولون، ألغوا عقولهم نسأل الله السلامة والعافية، وهؤلاء الملاحدة من أعظم الناس

kutub-pdf.net

وهذا يبرأ منه المشايخ إذا قال أحدهم: ما أرى غير الله، أو لا أنظر إلى غير الله، ونحو ذلك فمرادهم بذلك ما أرى ربًا غيره، ولا خالقًا ولا مدبرًا غيره، ولا إلهًا لي غيره، ولا أنظر إلى غيره محبة له أو خوفًا منه أو رجاء له، فإن العين تنظر إلى ما يتعلق به القلب.

فمن أحب شيئًا أو رجاه أو خافه التفت إليه. وإذا لم يكن في القلب محبة له ولا رجاء له، ولا خوف منه، ولا بغض له، ولا غير ذلك من تعلق القلب له، لم يقصد القلب أن يلتفت إليه، ولا أن ينظر إليه، ولا أن يراه، وإن رآه اتفاقًا رؤية مجردة، كان كما لو رأى حائطًا ونحوه مما ليس في قلبه تعلق به.

والمشايخ الصالحون رضي الله عنهم يذكرون شيئًا من تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين كله، بحيث لا يكون العبد ملتفتًا إلى غير الله، ولا ناظرًا إلى ما سواه، لا حبًا له ولا خوفًا منه، ولا رجاء له، بل يكون القلب فارغًا من المخلوقات، خاليًا منها، لا ينظر إليها إلا بنور الله.

وهي أسماء وصفات لله هُو شيء واحد ويتجلىٰ في صورة كذا وفي صورة كذا يتجلىٰ في صورة معبود كما تجلىٰ في صورة فرعون ويتجلىٰ في صورة هادىٰ كما تجلىٰ في صورة الرسل وهو واحد وكل هذا من كلام هؤلاء الملاحدة.

وقوله وهذا يبدأ منه: أي المشائخ المستقيمين إذا صدر منهم كلمات موهمه فهي محمولة علىٰ معنىٰ صحيح هو حق فإذا قال أحدهم ما أرىٰ إلا الله فإنما يعني أنه ما رأىٰ غير الله ربا ولا خالقا ولا مدبراً، وليس المراد أنه ينكر المخلوقات.

وقوله والمشايخ الصالحون: هذا هو تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين لله سبحانه وتعالىٰ، بأن يكون العبد ملتفتًا لله عز وجل ولا يتلفت إلىٰ غيره، ولا ينظر إلىٰ ما سواه حباً له وخوفا ورجاءً، ولا ينظر إليها دون الله عز وجل ولا ينكر المخلوقات كما يقول الصوفية، بل يراها ويشهدها علىٰ أنها مخلوقة مدبرة، ولكنه في تصرفه

kutub-pdf.net

فبالحق يسمع، وبالحق يبصر، وبالحق يبطش، وبالحق يمشي. فيحب منها ما يحبه الله ويبغض منها ما يبغضه الله ويوالي منها ما والاه الله، ويعادي منها ما عاداه الله، ويخاف الله فيها، ولا يخافها في الله، ويرجو الله فيها، ولا يرجوها في الله، فهذا هو القلب السليم الحنيف الموحد المسلم المؤمن المحقق العارف بمعرفة الأنبياء والمرسلين وبحقيقتهم وتوحيدهم.

فهذا النوع الثالث: الذي هو الفناء في الوجود هو تحقيق آل فرعون ومعرفتهم وتوحيدهم كالقرامطة وأمثالهم.

وأما النوع الذي عليه أتباع الأنبياء فهو الفناء المحمود، الذي يكون صاحبه به ممن أثني الله عليهم من أوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين.

بالحق يسمع وبالحق يبصر وبالحق يبطش وبالحق يمشي، يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله ويوالي ما يواليه الله ويعادي ما يعاديه الله، ويخاف الله فيها ولا يخافها في الله، وقوله **فبالحق يسمع**: والقلب السليم الحنيف، لا ينكر المخلوقات ولكنه يثبتها على أنها مدبرة، ويعمل فيها وفق ما شرع الله، فالشيء الذي أحبه الله منها يحبه والشيء الذي أبغضه الله منها يبغضه وهكذا، أما إنكارها فهذا فناء الملاحدة، وأما نسيانها من الشهود فهذا نقص فيها عظيم حصل للصوفية. والطريقة المثلى والطريقة الصحيحة هو أن يشاهد الخالق على أنه خالق ويشهد المخلوق على أنه مخلوق ولا ينكر المخلوقات ولكن يحب منها ما أحبه الله ويبغض منها ما أبغضه الله، هذا هو القلب السليم المؤمن الموحد.

وقوله **فهذا النوع الثالث**: أي أن فناء الملاحدة والزنادقة هو الفنا في الوجود وهو تحقيق أي فرعون وتوحيدهم من القرامطة وأمثالهم.

وأما قوله **وأما النوع الذي عليه أتباع**: هذا تسميته فناء من باب المقابلة مع الأنواع الأخرى، ومعناه أن يلغي الإنسان مراده لمراد الله، بمعنى أن تقدم مراد ربك وتلغي مراد نفسك، فإذا كانت نفسك وهواك تهوي شيئًا والله تعالى أمر بشيء أو أمرك رسوله بشيء فإنك تلغي مرادك وهواك لمراد الله، فتقدم مراد

kutub-pdf.net

....

الله على مرادك، فمثلاً الله تعالى أمرك أن تؤدي الصلاة في وقتها، فإذا كان مرادك أن تنام وعندك الرغبة في النوم في وقت الصلاة فإنك تلغي هذا المراد وتبطله لمراد الله، وهكذا، توافق الله في محابه ومراده، فهذا سمي فناء لأن الإنسان يفني ويلغي مراده لمراد الله، وهذا من الفناء المحبوب.

وخلاصة ما سبق: أن فناء الملاحدة والزنادقة هو الفناء في الوجود وهو تحقيق آل فرعون وتوحيدهم من القرامطة وأمثالهم. وأما الفناء المحمود فهو الفناء عن مراد السوي، بمعنى أنه يقدم مراد الله على مراد نفسه.

وبين المؤلف رحمه الله أن الصوفية لما قسموا الناس إلى ثلاثة أقسام: العامة والخاصة، وخاصة الخاصة، جعلوا لكل طائفة ذكرا، فقالوا إن ذكر العامة: لا إله إلا الله وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، هذا هو ذكر العامة عندهم، العامة عندهم جميع الأنبياء والمرسلين. لأنهم محجوبون عن الوصول إلى ما وصلت إليه الخاصة، أما الخاصة فإنهم خرقوا الحجاب ووصلوا إلى المعرفة التامة وألغوا صفاتهم وأفعالهم وجعلوها صفة الله، فصاروا خاصة، ارتقوا عن درجة العامة إلى درجة الخاصة، فصار ذكرهم قصيرا ولا يحتاجون إلى الذكر الطويل: لا إله إلا الله، بل يأخذون لفظ الجلالة فقط، فذكر الخاصة: الله الله الله الله. هكذا، وهذا موجود الآن في هذا العصر في كثير من البلاد الإسلامية غير بلدنا، موجود في افريقيا وفي باكستان وفي غيرها، يقول بعض الإخوان إنه مر على جماعة في المسجد من بعد العصر إلى المغرب وهم يذكرون بلفظ الجلالة الله الله الله الله. هكذا، حتى يغمى على الإنسان فيسقط، وهذا ذكر الخاصة.

أما خاصة الخاصة والعياذ بالله فهم الذين يصلون إلى القول بوحدة الوجود فالذكر عندهم أقصر من ذكر الخاصة فهم يأخذون حرف الهاء فقط من لفظ

kutub-pdf.net

....

الجلاله يقول أحدهم هو هو هو هو، يا هو يا هو، يجلسون يوهوهون كالكلاب ـ نسأل الله العافية. هذا ذكرهم، حتى إن ابن عربي رئيس وحدة الوجود صنف كتابًا سماه كتاب الهو، كما ذكر المؤلف رحمه الله.

ومن العجيب أن هؤلاء يستدلون على باطلهم من القرآن وهم لا يؤمنون بالله ولا بالقرآن فيستدلون على ذكر الخاصة (الله) بقول الله تعالى: **﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾** (قل الله) هذا الدليل على ذكر الخاصة مع أن هذه الآية جاءت في جواب سؤال **﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورْا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونه وتخفونه كثيرا وعلمتم ما لا تعلموا أنتم ولا آباءكم، قل الله﴾** أي قل الله أنزله، فقالوا (الله) يعني هذا ذكر الخاصة. كما أن خاصة الخاصة استدلوا على باطلهم وبأن ذكر خاصة الخاصة: (هو) تقول الله تعالى: **﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾** أي وما يعلم تأويل هو إلا الله، قال شيخ الإسلام رحمه الله فقلت لهم لو كان الأمر كما تقولون لكتب الآية: وما يعلم تأويل هو يفصل هو عن الفعل، لكن الهاء في الآية لم تفصل عن الفعل **﴿وما يعلم تأويله﴾**، مع أن هؤلاء والعياذ بالله لا يعترفون بالقرآن ولا بالسنة حتى قيل، لبعض هؤلاء الملاحدة الزنادقة: إن القرآن يخالف ما تقولون، فقال «**إن القرآن من أوله إلى آخره شرك والحق ما نقوله**. نعم هكذا يقول هؤلاء الملاحدة، فمن يقول بوجودين خالق ومخلوق فهو مشرك عندهم، والقرآن فرق بين الخالق والمخلوق فيكون شركًا عندهم، فماذا يكون الحكم على هؤلاء الملاحدة الزنادقة؟ نسأل الله السلامة والعافية.

والشيخ رحمه الله أفاض في هذا وبين أن الكلمة الواحدة (الله) أو الضمير (هو) لا يفيد القلب إيمانًا ولا معرفة ولا توحيدًا، إذ ليس بجملة تامة تفيد

وليس مراد المشايخ والصالحين بهذا القول، أن الذي أراه بعيني من المخلوقات: هو رب الأرض والسموات، فإن هذا لا يقوله إلا من هو في غاية الضلال والفساد، إما فساد العقل، وإما فساد الاعتقاد. فهو متردد بين الجنون والإلحاد.

وكل المشايخ الذين يقتدى بهم في الدين متفقون على ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، من أن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث، وتمييز الخالق عن المخلوق، وهذا في كلامهم أكثر من أن يمكن ذكره هنا.

معنى، إذ الفائدة في الجملة التامة (لا إله إلا الله) فهي نفي وإثبات، (سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) هذه كلها جمل مفيدة. والإنسان حينما يقول بسم الله، فهي متعلقة في فعل مقدر بحسب المقام فإذا كان يأكل يقدر بسم الله آكل. إذا كان يقرأ فقدر بسم الله أقرأ، فهي جملة مفيدة، وقد ظهر المقدر في قوله تعالى ﴿**بسم الله مجراها**﴾ وفي قوله ﴿**إقرأ بسم ربك الذي خلق**﴾ و﴿**سبح بسم ربك الأعلى**﴾ و ﴿**سبح بسم ربك العظيم**﴾، وليس المراد الذكر بالاسم المفرد، ولم يأت نص واحد بالأمر فالذكر بالاسم المفرد أو المضمر لأنه لا يفيد القلب توحيداً ولا إيمانًا ولا معرفةً وليس فيه فائدة، إذ الفائدة إنما تكون في الجملة التامة. وجماع الدين أصلان ألا يعبد إلا الله وهذا هو تحقيق شهادة (ألا إله إلا الله)، وألا يعبد إلا بما شرع، وهذا تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله.

وقوله ليس مراد المشايخ: هذا بيان لقوله فيما سبق إن بعض المشايخ يقول: ما أرى غير الله، يقول ليس مراده أنه ينكر المخلوقات، بل مراده ما أرى غير الله ربا أو خالقًا أو مدبراً.

وقوله وكل المشايخ: أي أن الله سبحانه وتعالى منفصل عن المخلوقات،

kutub-pdf.net

وهم قد تكلموا على ما يعرض للقلوب من الأمراض والشبهات، فإن بعض الناس قد يشهد وجود المخلوقات، فيظنه خالق الأرض والسماوات - لعدم التمييز والفرقان في قلبه - بمنزلة من رآى شعاع الشمس فظن أن ذلك هو الشمس التي في السماء.

وهم قد يتكلمون في الفرق والجمع، ويدخل في ذلك من العبارات المختلفة نظير ما دخل في الفناء.

فإن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة في المخلوقات يبقى قلبه متعلقًا بها مشتتًا ناظرًا إليها، وتعلقه بها، إما محبة، وإما خوفاً، وإما رجاء، فإذا انتقل إلى الجمع اجتمع قلبه على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له.

المخلوقات التي سقفها عرش الرحمن فهو سبحانه والله تعالىٰ منفصل عن المخلوقات لم يدخل في ذاته شيء من مخلوقاته ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، والمخلوقات سقفها عرش الرحمن هو نهايتها تنتهي وإذا انتهت المخلوقات فالله تعالىٰ فوقها مستوٍ علىٰ العرش بائن من خلقه وهو سبحانه الحامل لحملة العرش بقوته وقدرته لا يحتاجون إلىٰ شيء سبحانه وتعالىٰ. وقوله: (يجب إفراد القديم عن الحادث) القديم هو الله يعني الأول ـ عن الحادث ـ هو المخلوق، يتمييز الخالق عن المخلوق، فالجهمية الذين قالوا: إن الله حاله في المخلوقات ما أفردوا القديم عن الحادث ولا ميزّوا الخالق عن المخلوق بل جعلوا الخالق مختلطًا بمخلوقاته، وهذا كفر وضلال، نسأل الله العافية.

وقوله إن العبد إذا: هكذا يزعم بعض الصوفية أن الواحد إذا شهد التفرقة والكثرة في المخلوقات من أراضين وسماوات وبحار وأنهار وأشجار صار ذهنه مشتتًا، فإذا تناساها ولم يشهدها صار قلبه موحّدًا علىٰ الله، هكذا يزعمون، ثم يتوصل بهم الشيطان ويتدرج بهم إلىٰ أن ينكروا المخلوقات ويقولوا بوحدة الوجود).

kutub-pdf.net

فالتفت قلبه إلى الله بعد التفاته إلى المخلوقين، فصارت محبته إلى ربه، وخوفه من ربه، ورجاؤه لربه، واستعانته بربه، وهو في هذه الحال قد لا يسع قلبه النظر إلى المخلوق، ليفرق بين الخالق والمخلوق فقد يكون مجتمعًا على الحق، معرضا عن الخلق، نظرًا وقصدًا، وهو نظير النوع الثاني من الفناء.

ولكن أكمل من ذلك الفريق الثاني، وهو أن يشهد أن المخلوقات قائمة بالله، مدبرة بأمره، ويشهد كثرتها معدومة بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه رب المصنوعات وإلهها، وخالقها ومالكها، فيكون – مع اجتماع قلبه على الله إخلاصاً ومحبة وخوفًا ورجاء واستعانة وتوكلاً على الله وموالاة فيه، ومعاداة فيه – وأمثال ذلك – ناظرًا إلى الفرق بين الخالق والمخلوق، مميزًا بين هذا وهذا، يشهد تفرق المخلوقات وكثرها، مع شهادة أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه وأنه هو اله لا إله إلا هو.

وهذا هو الشهود الصحيح المستقيم، وذلك واجب في علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته، وفي حال القلب وعبادته، وقصده وإرادته، ومحبته وموالاته وطاعته.

وذلك تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تنفي عن قلبه ألوهية ما سوى الحق، وتثبت في قلبه ألوهية الحق.

وقوله فالتفت: وهذا النوع الثاني من الفناء هو الفناء عن شهود السوىٰ بمعنىٰ أنه يشهد الخالق ويتناسىٰ المخلوقات لا ينكرها لكن يتناسها حتىٰ لا تشوش عليه، هكذا يزعمون.

وقوله ولكن أكمل: هذا هو الكمال، وهو أكمل من شهود أهل الفناء الثاني، يشهد الله علىٰ أنه الرب الخالق المدبر المعبود المالك، ويشهد المخلوقات علىٰ أنها كانت معدومة، ولكن الله أوجدها وأنه سبحانه ربها وإلهها وخالقها ومالكها، هذا هو الكمال.

وقوله وهذا هو الشهود: لأنها تنفي عن قلبه إلهية ما سوىٰ الحق في قول (لا إله) وثبت في قلبه الحق في قول (إلا الله) فصدرها ينفي إلهية ما سوىٰ الله

kutub-pdf.net

فيكون نافيًا لألوهية كل شيء من المخلوقات، مثبتًا لألوهية رب العالمين، رب الأرض والسماوات، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله، وعلى مفارقة ما سواه، فيكون مفرقًا في علمه وقصده، في شهادته وإرادته، في معرفته ومحبته: بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالمًا بالله تعالى، ذاكرًا له، عارفًا به. وهو مع ذلك عالم بمباينته لخلقه، وانفراده عنهم، وتوحده دونهم.

ويكون محبًا لله، معظمًا له، عابدًا له، راجيًا له، خائفًا منه، محبًا فيه مواليًا فيه، معاديًا فيه، مستعيناً به، متوكلاً عليه، ممتنعًا عن عبادة غيره، والتوكل عليه، والاستعانة به، والخوف منه، والرجاء له، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والطاعة لأمره، وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلهية الله سبحانه وتعالى.

وإقراره بألوهية الله تعالى دون ما سواه، يتضمن إقراره بربوبيته وهو أنه رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره، فحينئذ يكون موحدًا لله.

ويبين ذلك أن أفضل الذكر «لا إله إلا الله» كما رواه الترمذي، وابن أبي الدنيا، وغيرهما مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»[1].

وعجزها يثبت إلهية الحق (لا إله إلا الله) نفي وإثبات.

وقوله **فيكون نافيًا**: هذا هو التوحيد الصحيح، وهذا هو الشهود الصحيح المستقيم. التفرقة بين الخالق والمخلوق، فالله تعالى له قدره وعظمته والمخلوق له مكانته، فالمخلوق مدبر مصرف مقهور، وهو من أدلة قدرة الله ووحدانيته، والله تعالى هو الخالق المستحق للعبادة، وهو المتفرد بالتصرف والتدبير).

---

(١) رواه الترمذي [٣٣٨٣] وابن أبي الدنيا في الشكر [١٠٣]، والنسائي في عمل اليوم والليلة [٨٣١]، وابن ماجه [٣٨٠٠] من طريق موسى بن إبراهيم الأنصاري بسند حسن.

kutub-pdf.net

وفي الموطأ وغيره عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن النبي ﷺ قال: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على شيء قدير»(١).

ومن زعم أن هذا ذكر العامة، وأن ذكر الخاصة: هو الاسم المفرد، وذكر خاصة الخاصة: هو الاسم المضمر، فهم ضالون، غالطون.

وقوله أفضل ما قلت: هذا أفضل الذكر؛ فأفضل ما تكلم به الناس كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، لكن أفضل الكلام على الإطلاق هو كلام الله عز وجل، ثم بعد كلام الله أفضل ما يتكلم به الناس كلمة التوحيد (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) (لا إله إلا الله) لأن معناها لا معبود بحق إلا الله.

وقوله ومن زعم: هؤلاء هم الصوفية يزعمون أن ذكر العامة (لا إله إلا الله)، وأن ذكر الخاصة الاسم المفرد (الله)، وذكر خاصة الخاصة الاسم المضمر وهو (الهاء) من لفظ الجلالة(هو)، فهم ضالون غالطون، ولا شك في أن هذا ضلال فإن خاصة الخاصة على الحقيقة هم الأنبياء والمرسلون، وافضلهم أولو العزم وذكرهم (لا إله إلا الله) فإنهم أمروا قومهم بأن يقولوا لا إله إلاالله، وهم خاصة الخاصة، ولما سأل موسى ربه ذكرًا يذكره به، قال الله له يا موسى: قل لاإله إلا الله، قال: يا ربي كل عبادك يقولون هذا، يعني يريد شيئًا يختص به، فقال الرب سبحانه وتعالى: يا موسى. لو أن السموات السبع وعامرهن، والأراضين السبع كانت في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله).

---

(١) رواه مالك [١/ ٤٢٢/ ٢١٦] والبيهقي [٤/ ٢٨٤] و[٥/ ١١٧] وانظر السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني حفظه الله تعالى [١٥٠٣].

kutub-pdf.net

واحتجاج بعضهم على ذلك بقوله ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1]. من أبين غلط هؤلاء، فإن الاسم الله، مذكور في الأمر بجواب الاستفهام في الآية قبله، وهو قوله ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ﴾[1]. أي الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فالاسم الله مبتدأ، خبره قد دل على الاستفهام، كما في نظائر ذلك، تقول من جاره؟ فيقول زيد.

وأما الاسم المفرد مظهرًا أو مضمرًا، فليس بكلام تام، ولا جملة مفيدة.

ولا يتعلق به إيمان ولا كفر، ولا أمر ولا نهي.

ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة، ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة، ولا حالاً نافعًا، وإنما يعطيه تصورًا مطلقًا لا يحكم عليه بنفي ولا إثبات.

وقوله واحتجاج بعضهم: هكذا يحتجون بهذه الآية لإثبات باطلهم مع أنهم لا يعترفون بالقرآن.

وقوله وأما الاسم: لكن هؤلاء تجاوزا القرآن ولو كانوا يؤمنون بالقرآن ما قسموا الناس هذه الأقسام، ولازعموا أن الخاصة فوق الأنبياء والمرسلين وأن المرسلين من العامة.

وقوله ولا يتعلق به إيمان: أي أن الاسم المفرد (الله) أو (هو) ما يتعلق به إيمان أي توحيد، إذ التوحيد في الجملة التامة (لا إله إلا الله)، أما (الله . الله) ما فيها توحيد، (هو . هو) ما فيها توحيد ولا إيمان ولا كفر ولا حق ولا باطل ولا يزيد القلب إيمانًا ولا معرفة وليس فيه فائدة، بل إنها كما سبين المؤلف رحمه الله سبب في تصورات باطلة وسبب للوقوع في أناع وفنون من الإلحاد والاتحاد.

---

(١) سورة الأنعام: ٩٢.

kutub-pdf.net

فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله، ما يفيد بنفسه، وإلا لم يكن فيه فائدة، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه، لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره.

وقد وقع بعض من واظب على هذا الذكر في فنون من الإلحاد، وأنواع من الاتحاد، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

وما يذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات.

حال لا يقتدى فيها بصاحبها، فإن في ذلك من الغلط ما لا خفاء به، إذ لو مات العبد في هذه الحال، لم يمت إلا على ما قصده ونواه، إذ الأعمال بالنيات.

وقوله وقد وقع بعض: أي أن الصوفية يواظبون على هذا الذكر، مستمرون عليه، لكنهم بسبب مواظبتهم على هذا الذكر وقعوا في فنون من الإلحاد وفنون من الاتحاد ـ نعوذ بالله من ذلك ـ والاتحاد: هو القول باتحاد الخالق مع المخلوق. وكما سبق فبعضهم يواظب على هذا الذكر من بعد العصر إلى المغرب يردد لفظ الجلالة (الله . الله . الله . الله) أو الهاء: (هو . هو . هو)فإذا استمروا على ذلك ساعتين أو ثلاث أو أربع ساعات فماذا يكون حالهم؟ في الغالب أنه يغمى عليهم.

وقوله وما يذكر عن: بعض شيوخ الصوفية لما قيل له: لماذا لا تقول (لا إله إلا الله)، قال: أخاف إذا قلت لا إله أموت وأنا ما وصلت إلى الله، أخاف أن أموت بين النفي والإثبات فأكون مشركًا، فأنا أكتفي واحدة وهي: الله الله الله؟ وقد رد عليهم المؤلف رحمه الله بأنه لو فرض أنه مات فالعبرة بنيته إذا كان موحداً فلا يضره، لأنه مات بدون اختياره وهو موحد، و إنما الأعمال بالنيات، فهذا كله تأويل ومحذور باطل لبعض الشيوخ.

kutub-pdf.net

وقد ثبت أن النبي ﷺ أمر بتلقين الميت: «لا إله إلا الله»(١). وقال: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»(٢).

«ولو كان ما ذكره محذورًا، لم يلقن الميت كلمة يخاف أن يموت في أثنائها موتًا غير محمود، بل كان يلقن ما اختاره من ذكر الاسم المفرد.

والذكر بالاسم المفرد أو المضمر أبعد عن السنة، وأدخل في البدعة، وأقرب إلى إضلال الشيطان، فإن من قال: يا هو يا هو، أو : هو هو، ونحو ذلك، لم يكن الضمير عائدًا إلا إلى ما يصوره قلبه، والقلب قد يهتدي وقد يضل.

وقد صنف صاحب «الفصوص» كتابًا سماه كتاب ال «هو» وزعم بعضهم أن قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٣). معناه، وما يعلم تأويله هذا الاسم الذي هو الهو، وإن كان هذا مما اتفق المسلمون بل العقلاء على أنه من ابين الباطل، فقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء، حتى قلت مرة لبعض من قال شيئًا من ذلك: لو كان هذا كما قلته لكتبت الآية: وما يعلم تأويله «هو» منفصلة. ثم كثيرًا ما يذكر بعض الشيوخ أنه يحتج على قول القائل: «الله» بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ

وقوله ولو كان ما ذكره: أي لو كان في هذا الذكر محذور ما أمر النبي ﷺ أن يلقن الميت لا إله إلا الله، لأنه أيضًا يخشى أن يموت الميت في أثنائها فلو كان في هذا محذور ما أمر به النبي ﷺ، فلما أمر به دل على أنه ليس فيه محذورًا.

وقوله والذكر بالاسم: الضمير في قوله هو يعود إلى ما يصوره قلبه وينحته فكره من معبوده الذي يعبده.

وقوله وقد صنف: أي أن صاحب كتاب الفصوص هو محمد ابن عربي.

---

(١) (رواه مسلم [٩١٧].

(٢) رواه أبو داود [٣١١٦] والحاكم [١/ ٣٥١].

(٣) آل عمران: ٧.

kutub-pdf.net

ذَرْهُمْ﴾(١). ويظن أن الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد.

وهذا غلط باتفاق أهل العلم، فإن قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ معناه: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى وهو جواب لقوله ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ﴾(١). أي الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى رد بذلك قول من قال: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾. فقال: ﴿من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾. ثم قال: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أنزله، ثم ذر هؤلاء المكذبين في خوضهم يلعبون.

ومما يبين ما تقدم، ما ذكره سيبويه وغيره من أئمة النحو: أن العرب يحكون بالقول ما كان كلامًا لا يحكون به ما كان قولاً. فالقول لا يحكى به إلا كلام تام، أو جملة اسمية، أوجملة فعلية، ولهذا يكسرون «إن» إذا جاءت بعد القول، فالقول لا يحكى به اسم، والله تعالى لا يأمر أحدًا بذكر اسم مفرد، ولا شرع للمسلمين ذكرًا باسم مفرد مجرد.

وقوله **وهذا غلط**: يبحث المؤلف رحمه الله بحثًا لغويًا، فإن سيبويه إمام النحاة وكذلك غيره من أئمة النحو يقررون أن العرب يحكون بالقول ما كان كلاما لا يحكون به جملة أو كلمة واحدة، وكلمة ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ هذه قول يُحكى به كلام ولا يحكى به كلمة؟، فدل على أن قوله هذا ﴿قل الله أنزله﴾ جملة وليس كلمة واحدة، لأن سيبويه وأئمة النحو قرروا بأن العرب تحكي بالقول ما كان كلاماً، لا تحكي بالقول كلمة واحد، والآية ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ قول وكلام و﴿قُلْ﴾ يأتي بعدها جملة مفيدة لا تأتي بعدها كلمة واحدة ﴿قُلِ اللَّهُ أنزله﴾.

---

(١) سورة الأنعام٩١.

kutub-pdf.net

والاسم المجرد لا يفيد شيئًا من الإيمان باتفاق أهل الإسلام، ولا يؤمر به في شيء من العبادات، ولا في شيء من المخاطبات.

ونظير من اقتصر على الاسم المفرد: ما يذكر أن بعض الأعراب مر بمؤذن يقول: «أشهد أن محمداً رسول الله» – بالنصب – فقال : ما ذا يقول هذا؟ هذا الاسم، فأين الخبر عنه الذي يتم به الكلام.

وما في القرآن من قوله: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾[1] ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ

وقوله والاسم المجرد: يقصد المؤلف أن الاسم المفرد كلمة واحدة لا تفيد إيمانا لا يفيد الإيمان كلمة (الله) أو كلمة (محمد) وحدها، لا بد أن تضيف لها كلمة أخرى حتى تكون جملة مفيدة «مثل الله أكبر»، و«سبحان الله»، وهكذا ولا تفيد الكلمة الواحدة شيئًا يستفاد به في المخاطبة حتى تضم إليها كلمة أخرى أو كلمتان فيتكون جملة مفيدة.

وقوله ونظير من اقتصر: أشهد أن محمداً رسول الله «أن» حرف توكيد ونصب، «محمداً» اسمها منصوب، «رسول خبرها، فأنت تشهد أن محمداً رسول الله، فإذا فتحت رسولَ وقلت «أشهد أن محمد رسولَ الله» لم يأت الخبر، فأين الخبر؟ يحتمل أنه يأتي بعد فتقول «أشهد أن محمدا رسول الله صادق فيكون صادقا هو الخبر، فإذا نصبت رسول الله فما جاء الخبر، وإذا رفعتها صار هو الخبر، على أن هناك لها توجيه، يعني لو وجدنا مؤذنا يلحن ويقول (أشهد أن محمداً رسول الله) فلها توجيه، هناك من يرى فتح الجزئين ويرى أن الخبر قد يفتح ـ يعني على قول ـ وإن كان غير مشهور.

---

(١) سورة المزمل : آية ٨.

kutub-pdf.net

الأَعْلَى﴾[1] . وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[2]. وقوله ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾[3]. ونحو ذلك لا يقتضي ذكره مفرداً. بل في «السنن»[4] أنه لما نزل قوله ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾. قال: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزل قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ وقال : «اجعلوها في سجودكم.

وفي «الصحيح»[5] أنه كان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم». وفي سجوده «سبحان ربي الأعلى» وهذا هو معنى قوله: «اجعلوها في ركوعكم وسجودكم» باتفاق المسلمين.

فتسبيح اسم ربه الأعلى وذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد، كما في «الصحيح»[6] عنه ﷺ أنه قال: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع – وهن من القرآن: سبحان

وقوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ : يعني هذه الآيات ليس المراد بها أذكر ربك : (الله الله) فقط أو ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ليس المراد كلمة واحدة، بل المراد يقول أذكر ربك وسبح اسم ربك، فسبح باسم ربك العظيم المراد الجملة التامة المفيدة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ قل سبحان ربي العظيم، أو قل سبحان ربي الأعلىٰ، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال (اجعلوها في ركوعكم واجعلوها في سجودكم). لا بكلمة واحدة).

---

(١) سورة الأعلىٰ : ١ .

(٢) سورة الأعلىٰ : ١٤ ـ ١٥ .

(٣) سورة الواقعة : ٧٤ .

(٤) رواه أبو داود [٨٦٩] وابن ماجه [٨٨٧] وأحمد [٤/ ١٥٥] انظر العبودية بتعليق الشيخ علي حسن عبد الحميد .

(٥) صحيح مسلم [٧٧٢] .

(٦) كما في صحيح مسلم [٢١٣٧] نحوه وعلقه البخاري في صحيحه [١١/ ٥٦٦] .

kutub-pdf.net

الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

وفي «الصحيح»[1] عنه ﷺ أنه قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

وفي الصحيحين[2] عنه ﷺ أنه قال: «من قال في يومه مائة ﴿ مرة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كتب الله له حرزًا من الشيطان يومه ذلك، حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا رجل قال مثل ما قال أو زاد عليه».

وقوله سبحان الله: كل ماضي من الآيات والأحاديث كلها جمل مفيد وقصد المؤلف في هذا الرد على الصوفية الذين يزعمون أن ذكر الخاصة كلمة واحدة وهي (الله) وذكر خاصة الخاصة حرف وهو: (هو)، كل هذه النصوص ردت عليهم.

وقوله وفي الصحيح: أي أن كل كلمة جملة مفيد، والكلمة تطلق على الكلام المفيد، ولهذا يقال فلان ألقى كلمة وهي الخطبة.

وقوله وفي الصحيحين: هذا الحديث في الصحيحين كما ذكر المؤلف، لكن له تكملة وهو أن النبي ﷺ قال: ﴿من قال حين يصبح لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كان كمن اعتق عشرة أنفس من ولد إسماعيل وكتب الله له مائة حسنة، ومحى عنه مائة سيئة وكان في يومه في حزر من الشيطان حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا من قال مثل ما قال أو زاد عليه.

---

(١) رواه البخاري [٦٤٠٦]، [٦٦٨٢] [٧٥٦٣]، ومسلم [٢٦٩٤].

(٢) رواه البخاري [١١/ ١٦٨]، ومسلم [٢٦٩١].

kutub-pdf.net

ومن قال في يومه مائة مرة: سبحـان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر».

وفي «الموطأ»[١] وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «أفـضل ما قلته أنا والنبيـون من قبلي: لا إله إلا الله وحـده لا شـريك له، له الملك وله الحـمـد، وهو على كل شيء قـدير». وفي «سنن ابن ماجه» وغيره عنه ﷺ أنه قال: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله وأفضل الدعاء: الحمد لله».

ومثل هذه الأحاديث كثيرة في أنواع ما يقال من الذكر والدعاء.

وكذلك ما في القرآن من قولـه تعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾[٢] وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[٣]. إنما هو قول: باسم الله. وهذه جملة تامة، إما اسمية، على أظهر قولي النحاة، أو فعلية. والتقدير: ذبحي باسم الله أو أذبح باسم الله.

وقوله ومن قال: كل هذه جمل مفيدة (سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)، وفي الحديث الآخر من قـال (لا إله إلا الله وحـده لا شـريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) عشر مرات كان كمن اعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل، وإذا قالها مائة كان كمن أعتق عشرة ويكتب له مائة حسنة ويُمحىٰ عنه مائة سيئة ويكون في يومه في حرز من الشيطان.

وقوله وكذلك ما في القرآن: يعني إذا قدرت ذبح باسم الله صارت جملة إسمية، وإذا قدرت أذبح باسم الله صارت جملة فعلية، فالمقصود أنه حين يقول الإنسان (بسم الله) أنها جملة مفيدة لأنها متعلقة بالمحذوف، لأن المقدر

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة الأنعام: آية ٢.

(٣) سورة المائدة: آية ٥.

kutub-pdf.net

وكـذلك قول القـارىء «بسم الله الرحمن الـرحيم». فـتقـديره: قراءتي باسم الله، أو أقـرأ بسم الله. ومن الناس من يضمر في مثل هذا: ابتدائي باسم الله، أو ابتدأت باسم الله.

والأول أحسن، لأن الفعل كله مفعول باسم الله، ليس مجرد ابتـدائه، كما أظهر المضـمر في قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[(١)] وفي قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾[(٢)]. وفي قـول النبي ﷺ : «من كـان ذبح قـبل الصـلاة فليـذبح مكـانهـا أخـرى، ومن لم يكن ذبح فليذبح باسم الله»[(٣)].

ومن هذا الباب قـول النبي ﷺ في الحـديث الصحـيح[(٤)] لربيـبه عـمر بن أبي سلمـة: «يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك».

فالمراد أن يقول: باسم الله، ليس المراد أن يذكر الاسم مجردًا.

وكذلك قوله في الحـديث الصحـيح[(٥)] لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل».

وكذلك قوله الله ﷺ: «إذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله، وعند خروجه، وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء»[(٦)].

إذا كنت تذبح تقول ذبحي بسم الله أو أذبح بسم الله ، إذا كنت تأكل تقول أكلي بسم الله أو آكل بسم الله ، إذا كنت تقرأ تقول قراءتي بسم الله أو أقرأ بسم الله ، وهكذا يقدر المحذوف من جنس الفعل الذي يريده الإنسان .

---

(١) سورة العلق : آية ١ .

(٢) سورة هود آية ٤١ .

(٣) أخرجه البخاري [١٠/ ١٧]، ومسلم [١٩٦٠].

(٤) رواه البخاري [٥٣٧٦]، ومسلم [٢٠٢٢].

(٥) رواه البخاري [٩/ ٦٠٩]، ومسلم [١٩٢٩].

(٦) رواه مسلم [٢٠١٨] رواه أبو داود [٣٧٦٥]

kutub-pdf.net

وأمثال ذلك كثير.

وكذلك ما شرع للمسلمين في صلاتهم وأذانهم وحجهم وأعيادهم من ذكر الله تعالى، إنما هو بالجملة التامة، كقول المؤذن: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله.

وقل المصلي: الله أكبر، سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى، سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، التحيات لله.

وقول الملبّي: لبيك اللهم لبيك. وأمثال ذلك.

فجميع ما شرعه الله من الذكر، إنما هو كلام تام، لااسم مفرد، لا مظهر ولا مضمر.

وهذا هو الذي يسمي في اللغة: كلمة، كقوله: كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وقوله: «أفضل كلمة قالها الشاعر: كلمة لبيد: (ألا كل شيء ما خلا الله باطل)[١].

ومنه قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾[٢]. الآية. وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾[٣].

وأمثال ذلك مما استعمل فيه لفظ: «الكلمة». من الكتاب والسنة، بل وسائر كلام العرب، فإنما يراد به الجملة التامة، كما كانوا يستعملون الحرف في الاسم، فيقولون: هذا حرف غريب، أي لفظ الاسم غريب.

وقسم سيبويه الكلام إلى: اسم، وفعل، وحرف جاء لمعني ليس باسم ولا فعل، وكل من

---

(١) أخرجه البخاري [٣٨٤١]، ومسلم [٢٢٥٦].

(٢) سورة الكهف: ٥.

(٣) سورة الأنعام: ١١٥.

kutub-pdf.net

هذه الأقسام يسمى حرفًا. لكن خاصة الثالث: أنه حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل.

وسمى حروف الهجاء باسم الحرف، وهي أسماء.

ولفظ الحرف يتناول هذه الأسماء وغيرها، كما قال ﷺ : من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف.

وقد سأل الخليل بن أحمد. أصحابه عن النطق بحرف الزاي من زيد؟ فقالوا «زاي». فقال: جئتم بالاسم، وإنما الحرف : «ز».

ثم إن النحاة اصطلحوا على أن هذا المسمى في اللغة بالحرف، يسمى: كلمة، وأن لفظ الحرف يخص لما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، كحروف الجر ونحوها.

وأما ألفاظ حروف الهجاء، فيعبر تارة بالحرف عن نفس الحرف من اللفظ، وتارة باسم ذلك الحرف، ولما غلب هذا الاصطلاح صار يتوهم من اعتاده أنه هكذا في لغة العرب.

ومنهم من يجعل لفظ الكلمة في اللغة لفظًا مشتركًا بين الاسم مثلاً، وبين الجملة، ولا يعرف في صريح اللغة من لفظ : «الكلمة» إلا الجملة التامة.

والمقصود هنا: أن المشروع في ذكر الله سبحانه، هو ذكره بجملة تامة، وهو المسمى بالكلام، والواحد منه بالكلمة، وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل به الثواب والأجر، ويجذب القلوب إلى الله ومعرفته، ومحبته وخشيته، وغير ذلك من المطالب العالية، والمقاصد السامية.

وأما الاقتصار على الاسم المفرد مظهرًا أو مضمرًا، فلا أصل له، فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين.

بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات، وذريعة إلى تصورات وأحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد. كما تعد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع.

kutub-pdf.net

فصل

وجماع الدين أصلان

أن لا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بالبدع.

كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(١).

وذلك تحقيق الشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله.

ففي الأولى: أن لا نعبد إلا إياه.

وفي الثانية: أن محمدًا هو رسوله المبلغ عنه فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره.

وقد بين لنا ما نعبد الله به، ونهانا عن محدثات الأمور، وأخبر أنها ضلالة.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

كما أننا مأمورون أن لا نخاف إلا الله، ولا نتوكل إلا على الله، ولا نرغب إلا إلى الله، ولا نستعين إلا بالله، وأن لاتكون عبادتنا إلا لله، فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ونطيعه، ونتأسى به، فالحلال ما حلله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾(٣) . فجعل الإيتاء، لله وللرسول، كما قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾(٤).

---

(١) سورة الكهف: آية ١١٠.

(٢) سورة البقرة: آية ١١٢.

(٣) سورة التوبة: آية ٥٩.

(٤) سورة الحشر: آية ٧.

kutub-pdf.net

وجعل التوكل على الله وحده بقوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾[(١)]. ولم يقل: ورسوله، كما قال في وصف الصحابة رضي الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[(٢)].

ومثله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)]. أي حسبك وحسب المؤمنين، كما قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[(٤)]. ثم قال: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾[(٥)] فجعل الإيتاء لله وللرسول، وقدم ذكر الفضل لله، لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وله الفضل على رسوله وعلى المؤمنين.

وقال: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾[(٦)]. فجعل الرغبة إلى الله وحده، كما في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[(٧)].

وقال النبي ﷺ لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»[(٨)].

والقرآن يدل على مثل هذا في غير موضع.

فجعل العبادة والخشية والتقوى لله، وجعل الطاعة والمحبة لله ورسوله، كما في قول نوح عليه السلام ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[(٩)].

---

(١) سورة التوبة : آية ٥٩ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٧٤ .

(٣) سورة الأنفال : آية ٦٤ .

(٤) سورة الزمر : آية ٣٦ .

(٥) سورة التوبة : آية ٥٩ .

(٦) سورة التوبة : آية ٥٩ .

(٧) سورة الشرح : ٧ ـ ٨ .

(٨) سبق تخريجه .

(٩) سورة نوح : آية ٣ .

kutub-pdf.net

وقوله : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(١).

وأمثال ذلك.

فالرسول أمروا بعبادته وحده، والرغبة إليه، والتوكل عليه وطاعته، والطاعة لهم، فأضل الشيطان النصارى وأشباههم، فأشركوا بالله وعصوا الرسول، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح بن مريم، فجعلوا يرغبون إليهم ويتوكلون عليهم، ويسألونهم مع معصيتهم لأمرهم، ومخالفتهم لسنتهم، وهدى الله المؤمنين المخلصين لله، أهل الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق واتبعوه، فلم يكونوا من المغضوب عليهم ولا الضالين، فأخلصوا دينهم لله وأسلموا وجوههم لله، وأنابوا إلى ربهم، وفوضوا أمورهم إليه،وتوكلوا عليه، وأطاعوا رسوله، وعزروهم ووقروهم، وأحبوهم ووالوهم، واتبعوهم واقتفوا آثارهم، واهتدوا بمنارهم.

وذلك هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد دينًا إلا إياه.

وهو حقيقة العبادة لرب العالمين.

فنسأل الله العظيم أن يثبتنا عليه. ويكملهلنا ويميتنا عليه، وسائر إخواننا المسلمين.

---

(١) سورة النور : ٥٢ .

kutub-pdf.net

الفهرس

المقدمة	٣
فصل في وجوب الأمر بالمعروف	٣٤
خلاصة الباب الأول	٧٠
فصل في التفاضل بالإيمان	٧١
فصل في الفرق بين الخالق والمخلوق	١٤٥
وجماع الدين أصلان	١٧٢
الفهرس	١٧٥

kutub-pdf.net